أدب

٢٠١٥

عن الذي يُربي حجرًا في بيته

الطاهر شرقاوى

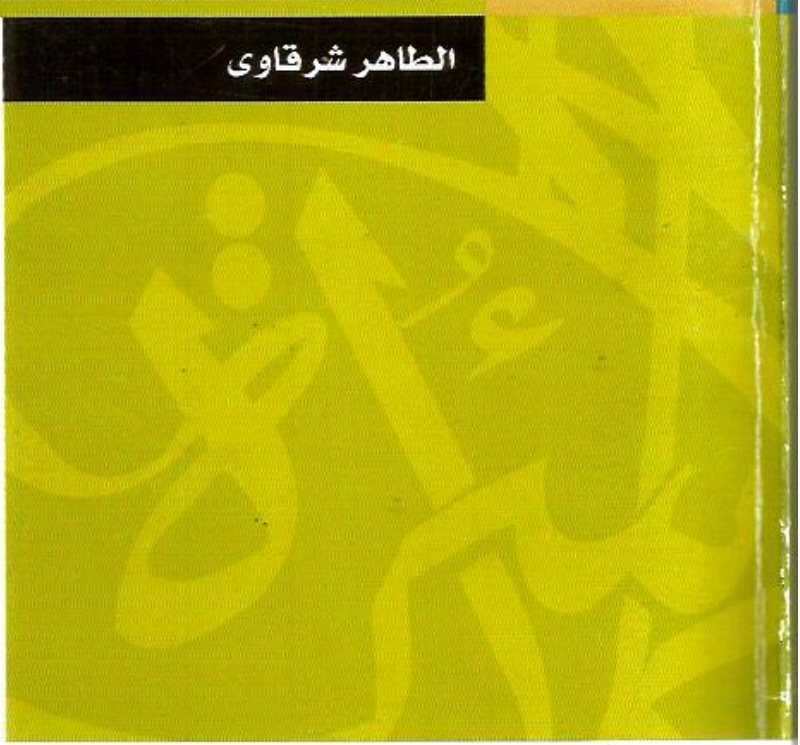

رواية

عن الذى يُربى
حجرًا فى بيته

رواية

مكتبة الأسرة ٢٠١٥

اللجنة العليا

فوزى فهمى رئيسًا
أحمد على عجيبة
أحمد زكريا الشلق
جرجس شكرى
جمال الغيطانى
خالد منتصر
خلف عبد العظيم الميرى
سيد حجاب
فاطمة المعدول
محمد بدوى
محمد شعير
محمد عنانى
مصطفى لبيب
نبيل عبد الفتاح
هالة خليل
أحمد مجاهد المشرف العام

الوزارات المشاركة:

وزارة الثقافة
وزارة التخطيط
وزارة السياحة

تصميم الغلاف

وليد طاهر

الإشراف الفنى

على أبو الخير
صبرى عبد الواحد
هشام متولى حامد

تنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

عن الذى يُربى حجرًا فى بيته

رواية

الطاهر شرقاوى

شرقاوى، الطاهر.
عن الذى يُربى حجرًا فى بيته: رواية/ الطاهر شرقاوى ـ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.
١٢٨ ص، ٢٠سم .
تدمك ٢ـ ٣٩٥ ـ ٩١٠ـ ٩٧٧ـ ٩٧٨.
١ ـ القصص العربية.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٨٥٦/٢٠١٥
I.S.B.N 978- 977- 910-395-2
ديوى ٨١٣

توطئة

الحقيقة المؤكدة التى تنطلق منها «مكتبة الأسرة»، هى أن تجليات الارتقاء فى الممارسات المجتمعية، تتحقق عندما ينشط النسق المعرفى والفكرى والثقافى للمجتمع ويتسع، بوصفه أهم الدوائر المؤثرة فى استمرار المجتمعات وتطورها واستقرارها، حتى لا يصبح المجتمع أسير أجوبة متخشبة جاهزة متوارثة فى مواجهة ضغوط احتياجاته، باجترار ثوابت معرفية تجاوزتها فتوحات الزمن المعرفى الراهن، بتنوعات إنجازاته المتجددة، فى حين أن رهانات المجتمع لتحقيق تجدده تتطلب ليس فقط أن يعرف المجتمع نفسه؛ بل أن يصنع نفسه، ويؤسس ذاته فى سياق إدراك دائم أن المجتمع لا يمكن أن يكون إلا بتحرير العقل العام، ليقرأ، ويتمعن، ويستوعب، ويدرك، ويعرف وتتحول مقروءاته، ومعارفه المستجدة إلى شبكة ممارسات يومية تسود كل مظاهر وآليات البنيات الاجتماعية والفردية وعلاقاتها، التى تواجه الصدوع اللامعقولة، وحالات التسلط المغلق التى تغلف وعى الناس بشطحات الارتداد والعزلة.

كما تستند «مكتبة الأسرة» إلى يقين أن إمكانات الإنسان أكثر ثراءً من الواقع، وأيضًا أن لا شىء يتأبد فى الحياة الاجتماعية، ليمنع العقل من بناء المعرفة الجديدة؛ إذ شحذ العقل باستخدامه الحر العام ـ بوصفه أداة الانتصار الإنسانى ـ يشكل إدراكًا معرفيًا عماده القراءة، يحرر المجتمع من عطالته، ويفتح نوافذ التأمل التى تدفع المجتمع إلى رؤية أشد تحولاً، وتؤسس لتفعيل إرادته وتحرير مصيره، وتضعه إيجابيًا فى مواجهة صورة الوجود الحقيقى أمام الممكنات المفتوحة التى ينتجها التواصل، والحوار مع الآخر، واستيعاب الاكتشافات الجديدة؛ إذ غياب القراءة يمنع المجتمعات من تحولها المتواصل، وينفيها من التأسيس الفعلى لزمن اجتماعى، فالقراءة هى البداية الكبرى التى إن ظلت مغلقة يصاب المجتمع بالخرس والصمت، حيث فى غياب القراءة تتجلى علامات العجز عن إحداث شىء، استنادًا إلى أن الصمت عن القراءة يبقى

صاحبه خارج موضوع المعرفة، محجوبًا عن التكوين الذاتى، والفعل الاجتماعى، إذ المعارف المستجدة تجعل الفرد يتمكن من أن يكون ، وأن يفعل، وتؤسس مسيرة إدراك المجتمع لمصيره الآمن، بأن تثرى امتلاكه قدرة إيقاظ ينابيع تخيل صورة وجوده، وإمكانية تحقيقها تصويبًا للواقع.

إن «مكتبة الأسرة» تسعى إلى فك احتكار فعل القراءة بالانتشار المتشعب للكتاب، وتقريبه للناس حتى تتحقق جدارة اكتساب الجميع مشروعية المعرفة، ومشروعية الفهم وتداولها، وذلك ما يشكل صميم جهد «مكتبة الأسرة» وتطلعه، تحقيقًا لحيوية مجتمعية تعقلن قبول التغير باستباق الفهم، وتمارس التحرر من فكرة المعرفة المطلقة، التى تخلق حالات من حصر التفكير وانحصاره، نتيجة هيمنة أفكار مطلقة متسيدة، تؤدى إلى الانغلاق، وعدم الانفتاح على المستقبل.

لا شك أن ثمة تناقضًا بين الدعوة إلى القراءة، وغياب الكتاب عن متناول شرائح اجتماعية لا تسمح ظروفها الاقتصادية باقتنائه، وذلك ما شكل معضلة أصبحت المحك الموضوعي فى تحقيق الدعوة إلى القراءة على المستوى المجتمعى، وقد نجحت وزارة الثقافة عام ٢٠١٤ بتفعيل التكاتف المؤسسى، وذلك بتجاوز الأطر التقليدية، فى دعم «مكتبة الأسرة»، لتبدد التمايز فى ممارسة حق القراءة بالنشر المدعوم، الذى يحرر الكتاب من استحالة وصوله إلى شرائح المجتمع، وقد استجابت لهذا التكاتف المؤسسى فى دعم «مكتبة الأسرة»، كل من وزارة التربية والتعليم، ووزارة التخطيط، ووزارة السياحة، انطلاقًا من أن دعم حق اكتساب المعارف يخلق تغييرًا يلبى طموحات الأجيال الشابة الصاعدة والمجتمع بأسره، وهو ما ينعكس فكريًا وثقافيًا فى ممارسات المجتمع الحياتية.

رئيس اللجنة

فوزى فهمى

(١)

عندما رن التليفون في الصباح، كان يسود المكان صمت عظيم.

شعاع لطيف من النور يتسلل من فتحات الشباك الحديدي، المطل على مدخل العمارة، راسمًا على أرضية الصالة مستطيلاً يتغير مكانه وحجمه ببطء. توقفت حنفية المطبخ عن التنقيط الذي تواصل طوال الليل، سكن الشارع من ضجة عيال المدارس، بينما تخلت ربات البيوت عن أعمال النظافة اليومية، المعتادة في مثل هذا الوقت، حتى بائعو العيش وأنابيب البوتاجاز والخضراوات ورجل الروبابيكيا ــ وباتفاق غير مسبق ــ لم يمروا اليوم كعادتهم ويتوقفوا قليلاً أمام العمارة.

لحظتها كنت أحدق في شاشة الكمبيوتر.

كان الرنين مزعجًا ولحوحًا، وعاليًا لدرجة لا تُحتمل، خدش السكونَ المحيط بي بلا مقدمات، ارتبك عقلي للحظات، وتساءلت: ماذا كنت أفعل منذ ثوان قليلة؟ وما الذى سوف أفعله الآن؟ كان الأمر أشبه بإيقاظي من النوم بشكل مفاجئ، يتبعه سماع خبر قاس، فأبدو مشوشًا ومحتارًا، ولا أدرى كيف أتصرف.

عندما نظرت إلى شاشة التليفون لم يكن ثمة اسم مسجل أو حتى رقم، الشاشة خالية تمامًا من أي شيء.

فقط رنين حاد يضغط على روحي.

أغمضت عينيَّ لأجزاء من الثانية ثم فتحتهما.

لم يكن هناك اسم أو رقم، نظرت إلى أبعد نقطة في الصالة ثم مررت عيني على السقف الأبيض، سألت نفسي: "هل حان الوقت لزيارة طبيب العيون؟"، بعض المعارف أثناء جلوسي في المقهى كانوا يتطوعون من تلقاء أنفسهم بالنصيحة، قائلين: "ارتد نظارة من أجل عينيك"، كانوا يقولونها عندما يجدونني منهمكًا في مطالعة كتاب أو جريدة، وقتها كنت أخمن أنها محاولة من طرفهم لجر الكلام وقضاء الوقت، أو ربما نصيحة صادقة، وإن اعتقدت بعد فترة أن نصيحتهم تلك ربما تكون البديل المهذب لجملة: "بُص.. إنك تضيع نور عينيك فيما لا ينفع"، أو السؤال الاستنكاري الذي عجزت مرارًا عن الإجابة عنه: "بماذا تفيدك القراءة؟".

لا يوجد اسم أو رقم.

أحسست بثقل الرنين وهو يضغط علي بقوة.

تصاعدت دقات قلبي أكثر، طبل صغير يسكن بين ضلوعي، نظرت إلى شاشة الكمبيوتر، تعرفت على بعض الكلمات العشوائية في المستند المفتوح، دق قلبي على غير العادة، ضغطت على زر الإجابة، جاء الصوت ناعمًا وجميلاً:

- صباح الفل..

كانت "سيرين"، هناك بهجة تتقافز من نبرات صوتها، بهجة تدعو إلى الرقص، ابتلعت ريقي، رددت بصوت حاولت ـــ جاهدًا ـــ أن يبدو طبيعيًّا:

- صباح الفل..

طلع صوتي بنبرة منخفضة، تقترب من الهمس..

تواصل رنين عال في أذني..

- هه.. أما زلت نائمًا؟

- أبدًا.. أنا صاحٍ من فترة.

- امم.. طيب..

- طيب..

- طيب ماذا؟

أغمضت عيني فحلت العتمة، بهذا الشكل أستطيع الإنصات والكلام بشكل أفضل، سألت نفسي: لماذا لم يظهر الاسم أو الرقم على الشاشة؟ هل العيب في جهاز تليفوني أم في شبكات الشركة؟ دائمًا يظهر الاسم أو الرقم. هل هذه أول مرة يحدث معي ذلك؟ خصوصًا مع اتصالات "سيرين"، هل مكالماتها دائمًا تصاحبها شاشة بيضاء؟ لا أتذكر شيئًا، كنت أرد على مكالماتها كلما اتصلتْ بشكل طبيعي، لكن لم يشغل تفكيري وقتها أن أتحقق من ظهور الاسم أو الرقم، لا أتذكر شيئًا الآن، كل ما أنا متيقن منه أنني عندما نظرت إلى شاشة التليفون منذ ثوان، لم أجد اسمًا أو رقمًا، فقط رنينًا يتواصل بلا توقف، لابد من وجود سبب،

كل شيء في الدنيا له سبب. قررت أن أسأل بعض الأصدقاء، ربما أجد عند أحدهم تفسيرًا لما حدث.

تلاشى الرنين من أذني تمامًا، عاد الصمت يعم المكان، رغم أن قلبي مازال يدق، دقاته تبث الرجفة في جسدي، تملكني خوف من شيء غامض، يمكن أن يفاجئني من أية جهة، فتحت عيني، تلفتُّ حولي في توتر، لاحظت أن مستطيل النور تحرك قليلاً من مكانه، أكمل عبور الحد الفاصل بين بلاطتين، وغمر الحجر القابع فى منتصف الصالة، بدا لونه البنى - تحت شعاع النور - نظيفًا ولامعًا ومغويًا أيضًا، تسلق النور الحائط المقابل للشباك، متوقفا للحظة فوق قط أسود مرسوم.

ضحكت "سيرين" ثم قالت:

- أفكرك بالميعاد..

- طبعًا..

- الساعة العاشرة.

- تمام..

"اطمئني.. أنا لا أنسى يا "سيرين" أي شيء يخصك"، مر الخاطر سريعًا في ذهني، فكرت أن أخبرها به، لكن ضحكة صغيرة أتتني في التليفون، جعلتني أتغاضى عن كل شيء.

أحب الاستماع إلى ضحكتها، عندما تضحك أصفّى ذهني تمامًا، أطرد أي خاطر أو فكرة ملحَّة، فقط أعيش مع ضحكتها حتى النهاية، أستمتع بها وهى تلامس أذني برفق، ثم تواصل طريقها نحو الأعماق بكل يسر،

أشعر بها وهى تسرى في كل شرايينى وأوردتى، تلامسنى - الضحكة - بلطف وخفّة من الداخل، محدثة خدرًا لذيذًا يجعل جلدي ينكمش.

الموعد تم الترتيب له منذ فترة، غدًا ولأول مرة سأقابل "سيرين" وجهًا لوجه. منذ أن تعارفنا من عدة شهور قليلة، وكل حواراتنا تتم إما عن طريق الحلم أو المكالمات التليفونية، كنت أحاول مع نفسي مداراة ارتباكي كلما تذكرت مقابلة الغد، خاصة عندما أفكر في كيفية إدارة الحوار بيننا، التليفون يعطيني الشجاعة والطلاقة في الحديث معها، فهي لن تراقب تعبيرات وجهي أو حركة يدي، أو كموني بلا حراك في العتمة أثناء المكالمة، العتمة تمنحني القوة على الحوار، لذا فى بعض الأحيان كنت أسارع إلى إغلاق الشباك وسحب الستارة، أو الضغط على زر النور أثناء المكالمة، وفى بعض المرات كنت أكتفى بإغماض عيني والإنصات إلى صوتها. فقط من خلال نبرات صوتي ستحاول استشفاف ما بداخلي وحالتي النفسية، لكن وجودها على بعد سنتيمترات قليلة مني، سيغير من الوضع تمامًا، أنا أعلم أنها ستراقبني بدقة، حتى لو حاولَت الإيحاء بغير ذلك، ستحلل كل ارتعاشة عين وكل حركة لأصابعي على المنضدة، كل كلمة سأتلعثم في نطق بعض حروفها، حتى قطرة العرق ستأخذ بالها منها.

عادت حنفية المطبخ إلى التنقيط، هناك مسافة متباعدة بين كل نقطة وأخرى، من صوت اصطدامها المكتوم بالحوض، خمنت أنها نقطة ماء صغيرة وضعيفة أيضًا.

- مالك؟

- أبدًا.

- تعبان؟

- لا.

- مرهق؟

- بالعكس.

- مكتئب؟

- لا.

- صوتك به شيء ما.

انتفض الشارع بالحياة، مرقت سيارة مسرعة، تبعها صوت امرأتين تتجادلان بصوت عال وغاضب، يكاد يصل إلى الزعيق، ثم تلاه مرور خطوات أقدام كثيفة، بينما نباح كلب أتى من بعيد.

- طيب.. إذن.. في العاشرة؟

- طيب.

أحسست بحبة عرق تتزلق من تحت ثديي، في المنتصف تمامًا.. كانت تحك في جلدي وهى تنحدر، فيقشعر جسدي، فكرت أن أمسحها بقميصي، لكنى لم أحرك يدي، قلبي يواصل الدق، يعود الرنين إلى أذني، خافتًا هذه المرة في طريقه إلى التلاشي، تابعت انزلاق حبة العرق، حتى اختفت في منطقة السرَّة، ولم أعد أشعر بها. تساءلت: لماذا لم يفارقنى التوتر، وخصوصًا بعد معرفتى أن "سيرين" هى المتحدثة؟ ليس مهمًّا ظهور الرقم من عدمه، أو التفكير فى الأسباب التى أدت إلى ذلك، حاولت إقناع نفسى بهذا المنطق، واصلت: المهم أنني في حضرة "سيرين".

أتى صوتها رائقًا وسعيدًا كالعادة:

- قلت في نفسي أفكرك بالميعاد.

لا أعرف لماذا تخيلتها وقد انتهت لتوِّها من حمام دافئ، تتجوَّل في بيتها وهى ترتدي بيجامة زرقاء ناعمة الملمس، عليها رسوم دباديب صغيرة، تكلمنى وهى تفعل بعض الأشياء البسيطة، كأن تفتح ستارة حجرة النوم فينهمر النور إلى الداخل، مغرقًا كل شيء، ثم تفتح ضلفتى الدولاب، تتأمل ملابسها لثوان، قبل أن تحرك بعض الشماعات من أماكنها وتعيد غلق الدولاب، أو تضع زجاجة الماء في الثلاجة، ثم تمسك في يدها بكوب نسكافيه باللبن، انتهت من إعداده منذ قليل، ذي رائحة شهية وبخار قليل يتصاعد منه في كسل.

- لا تنسَ؟

- إن شاء الله.

"سوف أعمل كوبًا من النسكافيه باللبن" قلت ذلك لنفسي، كررت الجملة عدة مرات حتى لا أنسي كعادتي، أحتاج إلى مشروب دافئ، ربما أمسكته في يدى وتجولت به، منتقلاً بين المطبخ والصالة مثلما تفعل "سيرين" الآن.

نبتت حبة عرق أخرى تابعَتْ مسيرة سابقتها، كانت لطيفة وهى تنحدر على جلدي، تاركة خلفها شعورًا محببًا بالدغدغة. لماذا لم يظهر الاسم أو الرقم؟.. هل تتكلم من تليفون آخر؟.. حتى لو حدث ذلك كان لابد من ظهور اسم.. أو حتى رقم.. أي رقم.. لقد عدت إلى التفكير مرة ثانية في حكاية الرقم، أعرف نفسى، لن أقدر على الفكاك بسهولة من تلك

الفكرة، بَنَتْ عشها في دماغي، وستظل مُصرَّة على ممارسة لعبة الظهور والاختفاء لوقت طويل.

- مع السلامة.

- مع السلامة.

تسارعتْ قطرات حنفية المطبخ، مع تسارع وتيرة الحياة في الشارع، وخطوات أقدام بدأت تتحرك في مدخل العمارة، بينما ظل رنين تليفون يتواصل في أذني - بخفوت - بلا توقف.

(٢)

فتحت التليفون بعد سماعي نغمة تنبيه الرسائل، توقفت عن المشي، قرأت على الشاشة: "للتوِّ كنت على بالى". الوقت كان قبل الغروب، انكسرت الشمس خلف العمارات، الشارع خال تماما من المارة، العمارات التي على الجانب الأيمن من الشارع قديمة، بُنيت منذ أكثر من عشرين عاما، وتقطن بها أسر معظمها من عمال المصانع القريبة والبعيدة، أما عمارات الجانب الأيسر أو "العمارات الجديدة" كما أطلق عليها قاطنو الصف المقابل، فهي خالية إلا من بعض الشقق، يتطاير من شرفاتها غسيل منشور، لوقت قريب كانت أرضًا جرداء تمتلئ بالحفر والمرتفعات الرملية، وسرعان ما أقيمت عمارات بارتفاع خمسة طوابق. طبقة من الرمل الخفيف تغطى أرض الشارع، أشجار "الفيكس" تقف بأوراقها الكثيفة المتربة، وقاماتها القصيرة، وأحجامها البدينة، كحارسات خُضْر على جانبي مداخل العمارات القديمة.

كنت عائدًا من لقاء عصيب على المقهى، صادفني مصاص الدماء في أحد الشوارع الجانبية، أتفحص بعيني بلاط الرصيف، فسحبني من يدي باتجاه المقهى القريب، دون أن يمنحني الفرصة للاعتذار، أو العثور على حجة

للانفلات منه، كان يبتسم بود وهو يرد على حججي المتعثرة قائلاً بإصرار: "سوف تأتي.. يعني سوف تأتي". لحظتها كان الجو حارًّا، لذا أخذت خيوط العرق تنحدر على جسدي بغزارة، بينما لم تنبت على جسده حبة عرق واحدة، رغم ارتدائه لربطة عنق وجاكت خفيف، وظل وجهه لامعًا ونضرًا، انقدت لمصيري المحتوم، وأنا أفكر بأن القدر غلاب، وأتمتم في سري بالكلمة السحرية: "مكتوب"، تلك الكلمة التي أرددها مع نفسي في الأوقات الصعبة، أو كلما شعرت بالرغبة في مواساة روحي والطبطبة عليها.

جلسته أرهقتني جسديًّا وامتصت الطاقة من روحي، وظللت لفترة - بعد ذهابه - في حالة من الدوار وعدم التركيز، لدرجة أنني كدت أطلب المساعدة من أحدهم كي أنهض من مكاني، متجها نحو محطة المترو.

أمشي على مهل، بينما صوت تليفزيون ينساب عاليًا من إحدى النوافذ، بأغنية تتر أحد المسلسلات. عندما اقتربت من العمارة التي أسكن بها، لمحت شباك صالة شقتي في الطابق الأرضي مغلقًا كما تركته، ثلاثة شبابيك متجاورة تخصني، من الممكن رؤيتها من مسافة، تبدأ بشباك الحمام الصغير ذي الضلفة الواحدة، ثم شباك المطبخ الأكبر قليلاً، وأخيرًا شباك الصالة ذو الضلفتين والأكبر منهما الاثنين، الشبابيك الثلاثة تطل على مدخل العمارة المكشوف للسماء، تتكون العمارة من جناحين، الجناح الأول يتقدم عن الثاني بعشرة أمتار، ويتأخر الجناح الثاني عن الأول بنفس المسافة، ويربط السلم الجناحين يبعضها كمفصل قوى وعملاق، يقبض على خمسة أدوار، في كل دور أربع شقق، تصميم بديع

يتيح للشمس أن تتسرب براحتها إلى كل جزء في العمارة. تحت شباك مطبخي تقع شجرة قصيرة بأوراق قليلة، منذ سكنت قبل ثلاث سنوات لم تنمُ سنتيمترًا واحدًا، وبقيت على حالتها بينما الأشجار الأخرى في المدخل تواصل النمو بلا توقف، ويتم تقليمها مرة في السنة، بمرور الوقت اكتشف لها أطفال العمارة فائدة، حيث اعتادوا ركن دراجاتهم الهوائية على جذعها النحيل.

في اللحظة التي كدت أنعطفُ فيها إلى مدخل العمارة صاعدًا الدرجتين الأماميتين، سمعت صوتًا يقول:

- "بس.. أنت".

اعتقدت لوهلة أنه أحد الصغار يلعب الاستغماية مع رفاقه، وأنهم يختبئون وراء جذوع الأشجار، توقفت عن المشي، دار هاجس بداخلي أنني توهمت سماع الصوت، التفتُّ حولي نحو الأشجار والأسوار القصيرة التي تحيطها وفضاء الشارع، دون أن ألمح أحدًا. وعندما فكرت في التحرك من مكاني، سمعت الصوت يتكرر ثانية، أتاني هذه المرة واضحًا رغم خفوته: "أنت.. أنت". كان يشبه صوت الأطفال، ينبعث من أسفل، قريبًا من قدمي.. شفته بجوار السور.. كان حجرًا بنيًّا، ملقى بإهمال، يعتليه تراب، وورقة جرائد أكلتها الشمس تستند عليه، حجر بلون الشيكولاتة، وفي حجم البطيخة الصغيرة، لم يكن كامل الاستدارة مثلها، لكنه تقريبًا في نفس الحجم.

أنا مغرم بالأحجار الصغيرة، في أدراج دولابي يوجد الكثير منها، بأشكال وأحجام وألوان مختلفة، كما أن هناك العديد من العلب البلاستيكية الشفافة، ممتلئة بأحجار اقتنيتها على مدى السنوات الفائتة، وجمعتها من أماكن مختلفة. ذات مرة احتفظت لفترة طويلة بحجر في حجم قبضة اليد، منقوش عليه ثلاث ورقات طويلة لنبات لا أعرفه، الورقات الثلاث تلتقي في دائرة صغيرة في قلب الحجر، ممتدة إلى أطرافه مثل شعاع الشمس، بدت لي كأوراق متحجرة، وفجأة اختفى الحجر من الأدراج إلى الأبد. أما في الحمام فأضع في الصبانة أحجارًا بحجم حبات الفول والفاصوليا، بيضاء وبنية وسمراء. الأحجار التي أحتفظ بها، كانت تبدو لي في بعض الأحيان شهية، ومغوية لتجربة طعمها، مخمنًا أنها ستكون مثل الحبوب المحمصة، وربما تفوح برائحة تخصها كالفول السوداني، أما التي تجعل لعابي يسيل، وأفكر جديًّا بوضعها في فمي، وأنا أغمض عيني مستمتعًا بنكهتها ورائحتها وصوت قرمشتها بين أسناني، فهي تلك الأحجار التي بلون الشيكولاتة، سواء كانت بلون داكن أو فاتح، وإن كنت أفضل الداكن منها، حيث يكون اللون البنّي حاضرًا ومركزًا بقوة، يقترب من الولوج في السواد، تمنحني درجة اللون شعورا مزدوجا بالقِدم والنضج معا.

أعرف هذا الحجر جيدًا، العيال يستخدمونه كقائم للمرمى عند لعبهم لكرة القدم، ثم يركنونه بجوار السور عقب الانتهاء من اللعب، إنه يعيش في الشارع منذ شهور عديدة، لا أعرف تحديدًا الظروف التي أدت به للقدوم إلى شارعي، واختياره الإقامة بالقرب من العمارة التي أسكنها، ربما أحضره أحدهم من مكان قريب، أو سقط من سيارة نقل مارة، أو

كان مدفونًا في الأرض وعثر عليه العيال أثناء لعبهم، تعاملوا معه باعتباره كنزًا، فأخرجوه بحماس ومتعة، قبل أن يكتشفوا فائدته كقائم للمرمى.

فكرت أكثر من مرة أن آخذه معي إلى شقتي، يخطف عيني بلونه البنى، وملمسه الناعم، وشكله الذي يستعصى على أي توصيف، دائري في غير اكتمال، يقترب من كونه مستطيلاً لكنه ليس كذلك، في كل مرة كان حجمه الكبير، الذى لا يتناسب مع الزلط الموجود بحوذتى، يجعلني أتردد في تنفيذ الفكرة. هذه المرة بدا لي وحيدًا ومهملا في مكانه، أشبه ما يكون بحجر يتيم ومسكين، بلا أحجار أخرى برفقته، أو أحد يهتم بمسح التراب العالق به، تحركت بداخلي بوادر من الشفقة تجاهه، وبإصرار اتجهت مسرعًا نحوه.

حملت الحجر الذي بحجم بطيخة صغيرة، والذي بلون الشيكولاتة الغامقة، وتحركت متجهًا إلى شقتي. كانت جارتى "س" التي تسكن في الدور الرابع تنزل آخر درجات السلم، وهى تؤرجح سلسلة مفاتيح معلقة في أصابعها، بينما تمسك في يدها الأخرى بتليفون محمول وكيس مناديل، ارتدت صندلاً مفتوحًا، أظهر قدمين نظيفتين بأظافر مطلية بالمانيكير، بصت للحجر بين يدي، وواصلت مسيرها بتمهل نحو الشارع دون أن يبدو عليها أي تعبير، تتبعها رائحة عطر خفيف، بدت حلوة بعباءتها السوداء، وخصلة من شعرها تبرز فوق الأذن.

في الأول وضعت الحجر على الكرسي، وأخذت أتأمله وأنا أفكر في المكان المناسب له، طبعا لن ينفع وضعه في الأدراج أو علب الملبّس الشفافة، هل المكتب مناسب له؟ أم أضعه على البلاط في منتصف الصالة،

ومن الممكن أن أحضر له كرسي الحمام، ليبدو واضحًا بشكل أفضل، وفي نفس الوقت يعتبر كقاعدة يستند عليها، لكن الفكرة لم ترق لي، لأن منظر الحجر فوق الكرسي الأزرق المصنوع من البلاستيك الرخيص، لن يكون متجانسًا.

قلت في حسم: "إحدى بلاطات منتصف الصالة مكان مناسب تمامًا". نفضت يدي من التراب العالق بهما، ثم قررت أن الحجر يحتاج إلى حمّام منعش، أمسكته بين يدى ووضعته برفق في الحوض، فتحت الحنفية وتركت الماء ينساب عليه ماسحا التراب، مظهرًا لون الشيكولاتة على حقيقته.

في الحقيقة، الحجر لم يتكلم معي ولا مرة بعد ذلك، أخذت أراقبه بدون أن يشعر بي، كنت أتوقع أنه سيفعلها وينطق، ولو حتى بكلمة واحدة، كلمة تبرهن لي، أن ما سمعته في ذلك اليوم قبل الغروب كان شيئًا حقيقيًّا، لم يكن خيالا أو هلوسة سمعية من شخص مرهق إلى أقصى حد، فكرت: ربما يكون خجولاً، لكنه ظل على صمته بلا حرف أو حتى همهمة، قابعا في مكانه دون أن يتحرك ولو سنتيمترًا واحدًا، بعد فترة تعودت على وجوده، وعلى صمته أيضًا، حتى إنني كنت أتفادى التعثر به أثناء التحرك في الظلام بشكل تلقائي.

في الأوقات التي يتملكني فيها مزاج سيئ، لا أدرى أسبابه، أضعه على باب حجرة النوم المفتوح، حتى يمنعه من الانغلاق بفعل تيار الهواء القادم من الشباك، أتركه هكذا للتراب والنمل، مهمَلاً، بلا أية نظرة عطف أو لمسة. أحيانًا أمارس ساديتي عليه، فأقول له كلما مررت بجواره: "أنت

زلطة" أو "يا زلطة". تولد لدىَّ إحساس قوى بأنه يبغض هذه الكلمة، ولا يطيق سماعها، لذا كنت أكررها بشكل دائم، أو أغنيها له هكذا: "زلطة.. يا زلطة" على وقع لحن شهير. ذات ليلة صحت في غضب: "لقد أنقذتك من العيال ومن كلاب وقطط الشارع.. هل تود أن أطردك إلى الخارج". أعرف أن الجملة قاسية عليه، فكرة الطرد إلى الشارع تؤرقه دائمًا، وتثير لديه ذكريات سيئة يود نسيانها وتجاوزها، كما أنها تشعره بأنه حجر منبوذ لا يرغب أحد في الاحتفاظ به، كما أنه لم يكن هناك مبرر حقيقي لكل هذا الغضب الذي تملكني تجاهه، وأنه ليس له ذنب في تعكر مزاجي، وأعتقد أنه تفهم ذلك، فكان يقابل نوبات غضبي بمواصلة الصمت التام، هذا الصمت الذي يشعرني بتأنيب الضمير، وبمدى فداحة آثامي التي أكررها معه، لكنني سرعان ما أهدأ، فأحمله إلى مكانه في منتصف الصالة، وأنا أمسح التراب الخفيف الراسي عليه، قائلاً في اعتذار: "لا تزعل مني.. كنت غاضبًا يا زلطة".

بينما في الأيام السعيدة، كنت أحمله بين يدي، وأذهب به إلى الحمام، أسمح لماء الحنفية أن يتدفق عليه، يراودني إحساس بأنه سعيد بشكل كبير، ويشعر بالغبطة والماء البارد يدغدغ ملمسه، مستعيدًا لونه المحبب، ربما أدندن له بإحدى أغنياتي المفضلة، ثم أجففه بفوطة صفراء صغيرة، اشتريتها خصيصًا من أجله، مقررًا مع نفسي، أنني سأحمله معي إلى البيوت التي سأنتقل إليها في حياتي القادمة، ثم أستمع بعدها إلى الموسيقى وأنا مغمض العينين محلقًا في ظلام لطيف لا ينتهي.

"إنه تحفة فنية"، تلك هي الحجة التي كنت أقدمها لأصدقائي في المقهى، عندما ألمح نظرة متسائلة على وجوههم، ثم أكمل محاولا إقناعهم بوجهة نظري: "هواية"، كلمة واحدة كنت أرجو أنها ستكون الإجابة القاطعة، لكن يبدو أن الأمر أصعب مما كنت أتصور. لا أعرف كيف تسرب الخبر إليهم، ربما كلمة أفلتت مني في حوار عابر، أو تكلمت عنه مرة بدون قصد، لكنهم بحنكة ومهارة التقطوها بقوة، نافخين فيها كل حين، لتسلية الوقت ولمآرب أخرى. البعض منهم اكتفى بالصمت، صديقتي الأولى "س" قالت - من وراء ظهري طبعًا: "مجنون"، بينما اكتفت صديقتي الثانية "س" بالقول: "لا.. هو فقط غريب الأطوار".. صديقي الشاعر "س" كتب قصيدة عنوانها: "عن الذي يربى حجرًا في بيته"، ونشرها في جريدة سيارة، نالت وقتها على إطراء الكثيرين، وتم تداولها على شبكة الانترنت بسرعة هائلة.

أحيانًا كنت أضطر إلى أن أخبئه وراء باب الحمام، أو أغطيه بكومة من الجرائد، أو أسربه إلى المطبخ، كنت أفعل ذلك عندما يأتي صاحب الشقة لأخذ الإيجار، أو تدخل عندي أم "س" التي تغسل المدخل والسلالم، لتملأ جرادلها بالماء.

صاحب الشقة كنت أعرف مواعيد قدومه، لذا كنت آخذ احتياطاتي قبلها بوقت كاف، أما أم "س" فلم تكن لها أيام أو مواعيد محددة، ذات مرة لمحته في منتصف الصالة وهي في طريقها للخروج، لم أكن قد تمكنت من إخفائه عن عينيها، كادت أن تتعثر به لكنها تماسكت في آخر لحظة، قبل أن تصيح في استغراب: "ما الذي أتى بهذا الحجر هنا؟"، أسندَتْ

بهدوء الجردل الذي اندلقت منه بعض المياه على البلاط، وبعض النقاط لامست الحجر، كانت تنظر بالتبادل بين الحجر وبقع الماء، خمنْتُ أنها بالتأكيد تفكر في القيام بتنشيف الماء والاعتذار عما حدث، ولما وجدتني صامتًا، بدون أي رد فعل من ناحيتي يساعدها على اتخاذ القرار المناسب، أضافت بحزم: "سأرميه خارجًا"، ربما اعتقدت أم "س" أن هذا القرار سيعفيها من تقديم اعتذار، وفي نفس الوقت تقدم لي معروفًا بالتخلص من الحجر، الذي تجهل سبب وجوده. ولما همت بالانحناء لالتقاطه قلت بسرعة: "دعيه.. إنني أحتاجه". حينها وزعت نظراتها الفضولية بالتساوي، بين الحجر الساكن وبين وجهي الذي حرصت على ألا يمنحها أي تعبير، ولما سألتني: "في ماذا؟"، لم أدر كيف أرد عليها، بدا لي سؤالاً يحتاج إلى تفكير طويل للعثور على إجابة مناسبة له، إجابة مقنعة ومنطقية وتفهمها أم "س" بسهولة، البحث عن مفردات وكلمات لصياغة تلك الإجابة كان عملية شاقة جدًّا، خصوصًا وأنها مازالت واقفة أمامي بلا حراك، تنتظر الرد.. في النهاية قلت: "من أجل اللصوص"، أتى الرد سريعًا، لا أعرف كيف تبادر إلى ذهني، فجأة وجدتني أنطقه بنبرة عادية تمامًا، بل تردد أو ارتباك في نطق الحروف، وبنفس سهولة نطق الإجابة هزت أم "س" رأسها في صمت، أمسكت الجردل الممتلئ بالماء وخرجت.

كنت جالسًا في استرخاء على الكرسي، مستمتعًا بالظلام الذي يحوطني بعدما أطفأت النور، لا أعرف كم الوقت الآن، خمنت أنه منتصف الليل أو بعده بقليل، السكون يطبق على المكان بالخارج. أحس بالدوخة من أثر فيلم انتهيت من مشاهدته منذ قليل، أخذت أفكر في خفة الطائر، في

وجوده معلقًا بين السماء والأرض، يبدو العالم من تحته مثل شيء ملقى بإهمال، يلفه الصخب والتراب وروائح راكدة، لو كنت مكانه لظللت في السماء إلى الأبد، أبني عشي في الفراغ، أرافق البرق والرعد، وانقر السحاب كلما قرصني الجوع.

في تلك اللحظة تملكني يقين أنني قاب قوسين أو أدنى من أن جسدي سيفعلها، ويتحرك عاليًا نحو السقف، كان الحجر في مكانه المفضل بمنتصف الصالة، بينما موسيقى تنبعث بصوت خفيض من الكمبيوتر، عندها سمعت الصوت: "بس.. أنت"، بدا مألوفًا لي، واصل الصوت: "أنت.. هذه الموسيقى حلوة.. ارفع الصوت قليلاً"..

كان الصوت يأتيني من أسفل، وكنت ابتسم وأنا أفرد يدي في الفراغ، بينما بهجة تسرى في جسدي كالسحر، وموسيقى تحملني برفق وكأني أعيش في حلم.

(٣)

الحلم الذي زارتني فيه كان ملونًا.. يمتلئ بالألوان.. عالم مخلوق كله من الألوان.. كل الألوان، وبدرجاتها المختلفة.. البيوت والشوارع، الطعام والأزياء، العربات والسحب، الأشجار والكتب، الأرصفة وأعمدة الإنارة.. حتى الضحكات التي تنطلق طائرة من بين شفاه الفتيات كانت ملونة.

لا أحلم مثل بقية الناس، وإن شئتم الدقة فأحلامي قليلة جدًّا، معظمها كوابيس لا أستطيع حكيها، من كثرة غموضها وتداخلها مع بعض، تشبه مجموعة من الخيوط المنعقدة لا أعرف أولها من آخرها، مما يجعلني أعيش يومًا من المزاج السيئ، الذي يصعب عليّ التخلص منه، بالإضافة إلى الشعور بإرهاق وآلام شديدة في كل أجزاء جسمي، وكأني قمت بنقل حجارة جبل وحدى، لدرجة تجعلني راقدًا في السرير إلى ما بعد الظهر، دون رغبة حقيقية في النهوض أو فعل أي شيء، كنت مع نفسي أصفها ساخرًا بأنها: "أعراض إنفلونزا الأحلام"، أما باقي أحلامي فكانت قصيرة جدًّا، أشوفها دائمًا بالأبيض والأسود، أنتظر قدومها بشغف رغم مجيئها على فترات متباعدة.

كانت تمتلئ بالحياة وتشع سحرًا غامضًا، عرفتها منذ اللحظة الأولى التي وقع بصري عليها، قلت لنفسي: إنها هي. فكانت هي.

قالت:

- اسمي في الأوراق الرسمية: "سرين"، - هكذا - بدون حرف الياء بعد السين، أخطأ موظف السجل المدني عندما أملاه أبي الاسم، ولم يهتم بتصحيحه فيما بعد قائلاً: "كلها أسماء"، بينما رددت أمي: "حتى يأخذ العين التي فلقت الحجر". أنا وحيدة أبوي، جئت على كبر، وبعد أن يئسا لسنوات، كنت فرحتهما التي انتظراها بشوق. عمومًا لا أحد يعرف حكاية الحرف الناقص سوى أسرتي وزميلاتي في الدراسة. وظل الأقارب والجيران ينادونني بأسماء الدلع، مرة: "سمسم" ومرة "سنسن" وأحيانا "سوسو"، وعندما اكتشفوا أنني كبرت قليلاً، نادوني ب- "سيرين".

حكت:

- ضايقني اسمي أيام زمان، عندما كانت زميلاتي في الفصل يضحكن عليه وهن ينطقنه بدون حرف الياء مع تشديد الراء.. سهرت كثيرًا أفكر، وبكيت مرارًا، في السر وفي العلن، وكثيرًا ما صرخت أمام أبوي في البيت: "أكره اسمي" معقبة في عتاب: "أنتما السبب"، وكنت ألوم أمي على انفراد: "أنا ابنتكما الوحيدة، لماذا أخطأتما في اسمي"، لكن تذمري الدائم لم يصلح الأمر. عندما أنفرد مع نفسي في حجرتي، كنت أحلم باسم يخلو من الأخطاء الإملائية، حتى لو كان اسمًا "دقة قديمة"، المهم اسم لا يثير غمز البنات وضحكهن الشرير.

روت:

- كرهت الذهاب إلى المدرسة، وأصررت بشكل حازم على تغيير اسمي، كنت حائرة بين عشرات الأسماء، كل الأسماء الجميلة للبنات كانت في يدي، كل يوم اختار اسمًا ثم أغيره في اليوم التالي.

قالت:

- الآن أعشق اسمي جدًّا.. أعشقه حتى لو كان بدون حرف الياء بعد السين..

أتت خصيصًا من مدينتها القريبة لمقابلتي، شافتني كثيرًا في حلم لا يفارقها، وخاطر واثق من نفسه أخبرها أنني موجود قريبًا منها لدرجة لا تتخيلها.. هي عكسي تمامًا في موضوع الأحلام، تقريبًا كل فترة نومها تعيشها في أحلام متواصلة، لتستيقظ بعدها وهي غارقة في دموع غزيرة، أو تصحو على جسد مسكون بالسعادة، فتنطلق في غناء عذب يملأ حجرات البيت.

تنبعث الموسيقى من أماكن غامضة، أما البنات فكن يتحركن بخفة على الأرصفة وهن يمسكن في أيديهن ببالونات.. مدينة صغيرة تفوح برائحة الأنوثة، وشوارع نظيفة ولامعة، وجوه ضاحكة دومًا، وأسماك صغيرة تملأ السماء فوقنا، ورائحة خفيفة لليود تفوح في المكان، وكأن هناك بحرًا قريبًا منا.

ضحكنا.. مشينا.. عدونا.. جلسنا.. تكلمنا.. غادرنا.. صمتنا.. تثاءبنا.. ابتسمنا.. غنينا.. حلمنا..

"أنا خبيرة في الأحلام" هكذا قالت "سيرين"، وهى تحكى لى أن سيدات العائلة والجيران والمعارف، كن يحكين لها أحلامهن، فقط حكى الحلم ولا شيء آخر، لا يطلبن تفسيرًا أو تأويلاً، إن تكلمت "سيرين" فخير وبركة وإن لم تفعل فقد أخرجن ما يكتم على صدورهن، كن مؤمنات بأن البنت التي عاشرت الأحلام، والتي تعرف ما لا يعرفه أحد، هي الوحيدة التي ستفهم وتنصت بلا ملل أو تذمر، أو حتى دون إعطاء تفسيرات لا معنى لها مثل الأخريات، واللاتي كن يقلنها من أجل بث الاطمئنان في قلوبهن القلقة، هذا اليقين الذي يقبع بالداخل، يجعلهن يمارسن طقوس الاعتراف بكل حب، قبل أن يشعرن بأنهن خفيفات وفرحات بشكل لم يجربنه من قبل كثيرًا. يأتين خصيصًا إلى البيت بحجة الزيارة والحرص على صلة الرحم، ثم ينفردن بها فى حجرتها، يتأكدن أولاً من وجود الأم في المطبخ ومن إغلاق الباب، قبل أن يبدأن في سرد أحلامهن دون نسيان ولو تفصيلة صغيرة، ثم يقتربن من أذنها ويهمسن: "إنه سر" ويرحلن، لكنهن يعدن ثانية بعد أيام أو أسابيع، ويكررن نفس الموضوع..

قالت "سيرين" إنها تقريبًا تحلم بكل شيء يحدث في حياتها..

- تخيل كل شيء أفعله أو يحدث من حولي شفته من قبل في الحلم.. في الأول كنت أنزعج بشدة وأرفض الخروج من البيت، قلت إنها لعنة أصابتني.. بعد ذلك علّمت نفسي كيف أتحكم في أحلامي، الأمر سهل: أفكر في الشيء الذي أود أن أحلم به، وببساطة يتحقق ذلك.. أختار أحلامًا على مزاجي، بدلاً من أن تأتى الأحلام وأنا وحظي.. أتعرف كنت أفكر في ولد أحلم به، ولد أعشقه مثل بقية البنات، كن يحكين لي

ويستشرنني في بعض الأمور، هذا الوميض الذي يظهر في عيونهن وهن يحكين كان يثير غيرتي، كنت أرى البهجة تسكن أجسادهن، فكرت مع نفسي: أريد أن أجرب طعم الحب.. فشفتك في حلمي، قلت لروحي: ربما صدفة، لكنك سكنت أحلامي لأسابيع تالية.

البنت التي زارتني في حلمي والتي بدورها شافتني في أحلامها، حكت عن أحد تلك الأحلام: كنت مستلقية على الحشائش في حديقة صغيرة، تحديدًا تحت إحدى أشجار "البوانسيانا"، وفي مواجهتي مقعد خشبي وحيد، يبدو قديمًا وعجوزًا بشكل يثير الشفقة، لم يكن هناك أحد من الخلق في الحديقة، وكأنها خلقت من أجلنا نحن، رأسي في حجرك، سكبت الكثير من الدموع، لا أعرف لماذا، فنبت عود قمح يحمل سبع سنبلات ذات طعم مر، لم تقترب منها الطيور، ثم مسدت على رأسي بيدك، فبكيت مرة ثانية، لا أعرف لماذا، نزلت دموع غزيرة، فنما بجواري عود قمح، يحمل سبع سنبلات طيبة الطعم، أقبلت عليها الطيور بنهم.

تمتلك روحًا حلوة، وحضورًا أجبرني على الوقوع في غرامها إلى الأبد.. قالت: "شفتك في الحلم وجئتك في الحلم.. بُص، إنه القدر".. قلت: "أنا مسكين، أحلامي قليلة".

ابتسمت وهي تقول: "سأطرق الباب ثلاث مرات، فقط ثلاث مرات، عندها أفتحه على مصراعيه"..

ضحكنا.. مشينا.. جلسنا.. تكلمنا.. صمتنا.. تثاءبنا.. ابتسمنا.. غنينا.. افترقنا..

الفراق هو اللقطة الوحيدة غير الواضحة في المشهد، يكتنفها بعض الغموض والضباب..

هل رافقتها إلى محطة المترو؟ أم أوقفت لها سيارة أجرة؟

هل بقينا معًا حتى أول شعاع من النور؟ أم فتحَتْ مظلتها وصعدت إلى السماء وسط تصفيق المارة.

البارحة طرقت "سيرين" الباب ثلاث مرات.

فقط ثلاث مرات..

وكانت سعيدة وهى تنعم بالبهجة على كل شيء بلا حساب، وتحمل في يديها أربعة أصص من الصبار.

(٤)

قالت "سيرين":

- سوف أحضر لك أصصًا من الصبار.

- لست ناجحا في العناية بأي كائن يا "سيرين".

كنت أفكر مع نفسي، أني سأخبرها بإحضاري لحجر بلون الشيكولاتة، وأنني تقريبًا معجب به لدرجة الهوس، هي تعرف مدى غرامي بالصخور، حدثتها من قبل عن الزلط الذي ألملمه من الشوارع، أنحني لالتقاطه بسعادة نافضًا عنه التراب، فيبين لونه صافيا، ثم أضعه في جيب حقيبتي. هي أيضًا حدثتني عن الصبارات التي تضعها في الشرفة وفي قطعة أرض صغيرة بجوار بيتها، أو كما تطلق عليها: "مزرعة الصبار". ويجب ألا أنسى - أثناء المكالمة - أن أسألها عن السر، وراء وجود مقعد خشبي واحد في الحديقة، رغم أنها تتسع للعديد من المقاعد، من يعلم؟ ربما تعرف سببًا مقنعًا.

- الصبار لا يحتاج إلى عناية فائقة.

وأكملت في حماس:

- لا تقلق.. سوف أساعدك بنصائحي.

- لا أحبذ الفكرة يا "سيرين".

ساد صمت عظيم و لم أسمع ردًا..

أعتقد أنني فاشل كبير في العناية بنفسي، فكيف أتورط في العناية بكائن آخر يا "سيرين"؟ إنها معادلة بسيطة ومنطقية. قطة جارى "س" لا تريد الحياة معه، يبدو أن أطواره الغريبة، تربكها بشدة، تشعرها بالقلق وعدم الأمان، تود بشدة العيش معي، تقفز من شباك الصالة وتختبئ بين صفوف الكتب في استكانة، تحرص على عدم ارتكاب فعل خاطئ، لم ترتكب يومًا جرمًا يثير غيظي وحنقي عليها، لم تمزق كتبي أو تبعثرها، لم تكسر كوبًا، حتى إنها لم تزعجني لحظة بموائها، تبدو مطيعة وعشرية ومسكينة، لكنني - في كل مرة - كنت أطردها إلى الخارج، دون أن أجرؤ على النظر في عينيها يا "سيرين".

ظل خط التليفون مفتوحًا لفترة، دون أن ينطق أحدنا بكلمة.

في الحقيقة، كان ذهني شاردًا في تلك اللحظة، العديد من الأمور تطفو على السطح مرة واحدة، بلا ترتيب أو نظام، وأقضى الوقت في محاولة للقبض على شيء محدد وذي معنى، فأتخبط ثانية في الحيرة والارتباك.

كنت أحاول أن ألملم خيوط فكرة جديدة، طرأت على بالى منذ عدة أيام، محاولاً تكوين شخصياتها وصفاتهم المميزة. أعمل في كتابة القصص المصورة في مجلات الأطفال، تدور الفكرة حول ابتكار شخصية مسلسلة، تعيش في زمن غير محدد المعالم، أي لا توجد تفاصيل دقيقة تحيل إلى عصر تاريخي معين. الشخصية عبارة عن تاجر اسمه "مرزوق"، دائمًا يكون برفقته ناقة اسمها "مرزوقة"، ثنائي دائم لا يفترقان عن بعضهما، وهما دائمًا على سفر، يزوران بلدانًا غريبة وعجيبة، "مرزوق" يعتقد أنه ذكى

وماهر لكن الحقيقة خلاف ذلك، بينما "مرزوقة" ذكية وتستخدم عقلها في حل المشكلات التي تواجههما، المفارقة تبدو من أن كل التصرفات الصائبة والتي تقوم بها "مرزوقة"، يعتقد "مرزوق" أنه هو صاحب فكرها، وبالتالي كل النجاحات والخروج من المآزق التي يقع فيها، ينسبها إلى حسن تفكيره وإدارته.

وصُغت الخطوط العامة للشخصيتين، هما لا يتكلمان مع بعضهما بشكل مباشر، لكن "مرزوق" يثرثر طول الوقت مع ناقته، وهو بالطبع لا يتوقع منها ردًّا، فهو يتعامل معها على أنها ناقة لا تتكلم، ولإعطاء المزيد من حرية الحركة في المغامرات، فكرت في إضافة شخصيات أخرى إلى المسلسل، شخصيات ثانوية تظهر في بعض المغامرات أو حسب الظروف، من هذه الشخصيات: "رزقة" وهى زوجة "مرزوق"، امرأة طيبة وهادئة، و"رزق" ابنه الصغير، ذكى ولماح يتعلم بسرعة، و"رزوق" قط يرافق "رزق" ففي كل الأوقات.. هذا هو ما كنت مشغولاً به الأيام الفائتة، مطلوب منى تسليم أربع حلقات مكتملة على الأقل، الأمر لم يتوقف عند هذا، جارى "س" لم يمنحني فرصة للنوم، فصحوت وأنا أحس بالكدر، وبأنني أحمل عينين ثقيلتين، علا صوته بعد منتصف الليل، خرج إلى مدخل العمارة، وأخذ يشتم في الحكومة بألفاظ نابية، ولم تنجح أمه العجوز في تهدئته أو إقناعه بالعودة إلى شقته، لم تَنْتَبْهُ هذا الحالة من قبل بهذا الشكل الحاد، كان يفعلها لدقائق معدودة، وسرعان ما يهدأ من تلقاء نفسه، وأحيانًا يستغرق بعدها في الضحك والغناء حتى يهده التعب، وربما نزل له أحد ساكني العمارة، وطيب خاطره بكلمتين حلوتين، فينصاع بشكل يثير الاستغراب، هذه المرة لم ينزل أحد من الجيران إليه كما توقعت، ولم يطالبه

أحد بالسكوت والعودة إلى النوم، أنا بدوري لم أفكر في الخروج إليه لعدة أسباب: أولاً: لأنني لا أجيد مثل هذه الأمور، أمور تهدئة الغاضبين والحانقين بكلام منمق ومرتب، يتخلله سرد لحكايات وأمثال، ودعوات للصبر وتحمل الحياة وظروفها، وتوحيد الله والصلاة على النبي، وثانيًا: راهنت نفسي أنه سيتعب سريعًا، ويتوقف عن الصياح من تلقاء نفسه، وثالثًا: كان عندي أمل في أن يأخذني النوم على حين غفلة. بعد فترة بدأ يشتم العمارة وساكنيها، ثم أخذ يشتم نفسه بألفاظ نابية، فى النهاية تركته أمه يواصل الزعيق، دخلت وأغلقت باب الشقة خلفها.

من أجل الانتهاء من كتابة الحلقات الأربع، حبست نفسى، ولم أخرج منذ يومين من الشقة، بمناسبة الشقة هذه الأيام سوف أكمل عامي الثالث فيها، بذلك أكون قد كسرت الرقم القياسي لأطول مكان أقمت فيه، في البدء سكنت في عدة شقق متباينة، وأيضًا في ضواحي المدينة المختلفة، يمكن القول إنني جُبت المدينة من أدناها إلى أقصاها، عشر سنوات منذ تخرجت في الجامعة، وأنا أنتقل من مكان إلى آخر، بدءًا من الأحياء الشعبية إلى الأحياء المتوسطة، أمتلك أثاثًا قليلاً، كرتونة كتب وحقيبة ملابس، أما بقية الأثاث كالسرير وأدوات المطبخ مثلاً فأتركها ورائي، في كل مكان سكنته كنت أترك ورائي جزءًا مني، بضعة كتب، أو صداقة مع جار، أو صاحب محل بقالة، أيضًا في كل مرة آخذ معي شيئًا ما، وجهًا لبنت حلوة تحرص دومًا على شرب شاي العصاري في البلكونة، ثم تدخل ولا تخرج ثانية إلا في عصر اليوم التالي، أو عجوزًا يقعد على كرسيه في الشارع منذ الصباح وحتى الغروب، يقرأ صحفًا قديمة يستعيرها من مطعم الفول القريب، أو بائع خضار يمر في وقت الضحى،

ويعشق محادثة ربات البيوت القابعات في شرفاتهن بكلام حلو. تبقى الوجوه محفورة في الذاكرة بشكل عجيب، أحيانًا تهل عليَّ في اليقظة، بسماتها المميزة ونبرات أصواتها، قبل أن تتوارى بنفس السرعة التي أتت بها، دائمًا تبقى الوجوه، بينما تنمحي الأسماء بسرعة البرق من الذاكرة.

كتبتُ بعض الأفكار لمغامرات "مرزوق" و"مرزوقة"، وعندما فكرت في البدء في الكتابة، شد انتباهي تحرك ستارة الشباك، إثر نسمة عابرة، وفكرت: ترى بم تشعر الستارة في تلك اللحظة؟ وهى تحس بخفتها وطيرانها ومعانقتها للهواء؟ لماذا أتت "سيرين" على بالى الآن؟ كان حضورها قويًّا، لدرجة جعلتني أسمع ضحكتها تتراقص حولي، ضحكة حقيقية، لم تكن خيالاً أو طيفًا، تعجبني ضحكة "سيرين" لدرجة تجعلني أنتظر الضحكة في كل حوار لنا، أقول في سرى: "بعد نطقها لهذه الكلمة سوف تفعلها"، فتخرج صافية منطلقة بلا قيود، تنبع من قلبها، وأتخيل عينيها اللتين تضيقان مع استمرارها فى الضحك، فجأة توقفت نسمة الهواء، فعادت الستارة إلى السكون.

لا أعمل في مكان محدد، يمكن القول إنني أعمل من البيت، وأتواصل مع مجلات الأطفال عن طريق الذهاب إلى مكاتبها، أو المراسلة عبر البريد الإلكتروني، لا أعمل في مجلات الأطفال فقط، مرة جربت الاشتراك في ورشة لكتابة "سيت كوم"، واشتركت في كتابة ثلاث حلقات، لكن الأمر لم يرق لي، وأحيانًا أقوم بكتابة عروض للكتب الصادرة حديثًا في بعض الجرائد والمجلات الثقافية، أو أقوم بكتابة دراسات في السياسة والتاريخ الاجتماعي، وإن كنت أحلم بكتابة سيناريو فيلم سينمائي، لكنني لم أتخذ فيه أية خطوات جدية.

فكرت أن ردودي على "سيرين" بدت سخيفة، وذات حجج ضعيفة وواهية، حتى لو كنت فاشلاً في الاهتمام بأي كائن آخر كما أعتقد، فنصائحها كانت ستساعدني في حال لو واجهت أي مشكلة، الموضوع بسيط ولا يحتاج إلى كل هذه الحدة في الردود، هل صعَّدت الموضوع دون أدرى؟ وهل للأمر علاقة باقتراحها السابق بالذهاب إلى طبيب نفسي؟ لا أعرف، اقتراحها جاء عقب ردى على أحد أسئلتها بجملة: "لا أعرف"، وقتها نبهتني إلى أنني أستخدم هذه الجملة كثيرًا في كلامي، وأنه يليق عليَّ لقب: "السيد لا أعرف".

كان يجب أن أقول لها: "لا أمتلك شرفة يا "سيرين"، فأنا أسكن في الدور الأرضي"، أو أقول: "عندما أسكن في شقة لها روف، سأترك لك صنع غابة من الصبار". بالتأكيد تلك الردود لن تجعلها غاضبة، وستتفهم عدم رغبتي في اقتناء الصبار، ماذا أفعل إذن لو اختفت كعادتها لأيام أو أسابيع، تنقطع تمامًا عن زياراتها لي في الحلم، وتكف عن مكالماتها الهاتفية، من الممكن أن تفعلها هذه المرة، ردودي ونبرات صوتها توحي بذلك، قلت في مناجاة: "سيرين.. أرجوك لا تفكري في الاختفاء"، وعزمت على مصالحتها عندما تعاود الاتصال بي أو تزورني في الحلم، وبالمرة أدعوها إلى المجيء معي إلى الحديقة، بالتأكيد سترحب، أعرف أنها شغوفة لرؤيتها من كثرة حديثي عنها، ولأنها أيضًا عاشقة للخضرة والنباتات، بحيث يمكن القول بأنها متيمة- لدرجة لا يمكن وصفها- بالصبار، وربما حفرنا اسمينا على المقعد الخشبي الوحيد بالحديقة.

(٥)

عندما دخلت الحديقة في الصباح، كان المقعد الخشبي الوحيد خاليًا كعادته، الحديقة أيضًا لم يكن بها أحد، عادة ما يكون روادها عدة أفراد قليلين، في الكثير من الأحيان يتواجد بها أسرة أو أسرتين صغيرتين، أو مجموعة من الجيران جاءوا مع بعضهم، دائما يأتون قبل الظهر بقليل، يحملون زجاجات المياه وأكياسًا بها طعام، يرقد الأب نائمًا على الحشيش، بينما تجلس بجواره على ملاءة سرير بمربعات حمراء أو زرقاء امرأة ممتلئة، ترتدى عباءة سوداء مطرزة بخيوط ذهبية، تشغل نفسها بالنظر إلى البعيد، وبالقرب منها يعلو صياح العيال المشغولين بلعب الكرة. في أوقات عديدة كانت المرأة تمد يدها إلى رأس الرجل الراقد، تعبث بأناملها في شعره المجعد القصير، تفعل ذلك ببطء وهى تبدأ في الكلام بشكل متواصل، بينما الرجل الذى فضل الاستماع، اكتفى بأن وضع يده فوق جبهته، يتقى بها وهج الشمس الساطع، غارقًا في صمته الخاص، وبين حين وآخر يصدر همهمة مبهمة من فمه، دليلاً على موافقته أو متابعته لكلام المرأة.

في هذا الصباح المبكر، وكعادة كل الصباحات الماضية لم يكن هناك أحد.. فقط حشائش قصيرة، ذات خضرة باهتة وأطراف حادة

كالأشواك، وأشجار "بوانسيانا" قليلة قصيرة هي أيضًا، تبدو وكأنها تعاني من مشاكل في النمو بتلك التربة، بينما أفرعها الممتدة بشكل أفقي في الهواء، بدت كأيد مرحبة بالداخلين، وقد تخللت الشمس أوراقها، راسمة على الأرض كتلاً من الظل المرقش ببقع الضوء.

عند بوابة الحديقة وجدت رجلاً يرتدي جلبابًا أزرق، وعمامة بيضاء متكورة فوق رأسه، يجلس على كرسي جريد بمسندين، وقد استند بظهر الكرسي على ضلفة البوابة الحديدية المفتوحة نحو الداخل. عندما اقتربت منه وجدت يده تشير لي بالمرور ثم تعود راقدة على بطنه، كانت عيناه شبه مغمضتين، اعتقدت لوهلة أنه نائم، لكن حركة يده الداعية إلى الدخول أربكتني قليلاً، تمهلت في خطواتي وفكرت أنه ربما يحلم، لكن يده التي تحركت مرة ثانية نحو الداخل، أكدت لي أنها حركة مقصودة تخصني أنا تحديدًا، وليست حركة لاإرادية من شخص يبدو كالنائم. حركة اليد جعلتني أواصل التقدم نحو المقعد الخشبي، الذى ينتصب في أول الممر المبلط، المؤدى إلى قلب الحديقة.

رجل البوابة كان يأتي على فترات متباعدة، لكن في الشهور الأخيرة بات يأتي كل يوم، في الأول ظننت أنه حارس الحديقة، لكن وجوده المستمر على الكرسي دون حراك جعلني أتشكك في تحديد وظيفته، هو دائمًا على هذه الهيئة المحيرة، والتي لا تمنحك انطباعًا واضحًا إن كان نائمًا أو مستيقظًا. كما أنه لا يفارق البوابة لأي سبب، و لم أسمعه يتكلم مع أحد، سواء من الرواد القليلين، أو العمال الذين يعتنون بالحديقة، ويشذبون حشائشها من وقت لآخر، عندما حاذيت الرجل تمهلت في خطواتي، وأنا

أقول بصوت حاولت أن يبدو واضحًا ومسموعًا: "صباح الخير". وعندما لم أتلق ردًّا، واصلت طريقي بلا مبالاة في اتجاه المقعد القريب.

بالأمس وفى الليل المتأخر، تسللت إلى الحديقة، رغبة عارمة دفعتني إلى الدخول، هل الأمر له علاقة بالقمر الذى كان في لحظة الكمال، أم هي النشوة الغريبة التي تلبست جسدي، وجعلتني أتمتم بأغان تتغزل في القمر والسهر، الحديقة بالليل تبدو مختلفة، هذا ما شعرت به بعد أن تخطيت البوابة، سحر غامض يلفها، وتملأ أرجاءها السكينة، همست: "الليل آسر والقمر فتان"، وتركت روحي ترفرف وهى منتشية.

- مقعد خشبي واحد، ملائم لحديقة بهذا الحجم.

قلت ذلك لنفسي، مبررًا وجود مقعد واحد فقط، الإجابة أراحتني قليلاً، بعد أن كان هذا السؤال يلح على تفكيري كثيرًا، كلما زرت الحديقة أو مررت بجوارها، لماذا مقعد واحد؟ وهل كان هناك العديد من المقاعد ولأسباب مجهولة تمت إزالتها، فلم يتبق سوى هذا المقعد؟ فكرت في سؤال رجل الحديقة عن السبب، لكنني تراجعت عندما تذكرت أنني لا أعرف بالضبط ما هي وظيفته، بالإضافة إلى أنني لم أكن متأكدًا إن كان سيرد على استفساري أصلاً، الحيرة التي انتابتني بخصوص المقعد، جعلتني أقوم بفحص أركان الحديقة، مدققًا في الأرض بحثًا عن آثار مقاعد مترعة ربما كانت موجودة ذات يوم، محاولاتي تلك لم تسفر عن العثور على أي دليل، بل أكدت لي بشكل يقيني: "أنه مقعد واحد لا ثاني له".

- مقعد واحد يكفى.

قلتها بصوت هامس، وأنا أنظر إليه من مكاني تحت شجرة "البوانسيانا" المقابلة.. مقعد وحيد مثلى، يقبع بعيدًا عن الأشجار والظل، ينتصب بوحدته تحت السماء، فقط ضوء الشمس هو الوحيد الذى يستريح عليه لبرهة، قبل أن يواصل رحلته على الأرض. أحيانًا تقف عليه بعض الغربان والعصافير والقطط، مرة شفت هدهدًا ينقر في خشبه المشقق، ظل ينقر بلا ملل لدقائق، ثم توقف قليلاً، مشى على ألواحه إلى الطرف الآخر، ثم عاد إلى مكانه وواصل النقر، حينها فكرت أنه ربما يبحث عن غذاء، بالليل وقبل أن أغطس في النوم حل الهدهد بقوة ضيفًا على تفكيري، وراودني شعور قوي أنه لم يكن يبحث عن الغذاء بين ألواح المقعد الخشبي، إنه ببساطة ينظف منقاره، نعم عملية أشبه بما نفعله نحن فى تنظيف أسناننا بالفرشاة والمعجون، ارتحت لهذا التفسير، خصوصًا وأن بعض الحيوانات تمارس سلوكا مشابهًا لذلك، القطط مثلاً تنظف فراءها بلسانها، بينما يتمرغ الحمار في التراب ليحك جلد ظهره.

الداخل إلى الحديقة لا بد له من المرور على المقعد الخشبي، الزوار القليلون يمرون دون أن يأبهوا له، أو حتى يلقوا نظرة عابرة عليه، دائمًا تكون أعينهم مصوبة إلى البعيد، حيث الشجر والظل، يفكرون في أنسب مكان يختارونه للجلوس، هكذا يتجاوزون المقعد بسهولة وسرعة، دون أن يفكر أحد في التمهل عنده، أو حتى تجربة الجلوس عليه للحظات، أو حتى إلقاء نظرة صغيرة نحوه، لم يفعلها أحد من قبل، فظل المقعد طول الوقت وحيدًا ومهملاً، تشققت ألواحه الخشبية وعلتها فضلات الطيور، وزحف الصدأ

على مساميره، بينما تراكمت عند أرجله أكوام صغيرة من التراب، وبين النمل بيوته في اطمئنان.

بدا لي كمقعد عجوز في طريقه للموت..

القطط اكتشفت أن الحديقة مكان مناسب لممارسة الحب، حيث تتواجد أسراب من العصافير تطلق زقزقاتها في وداع النهار، بينما يلفها بعد الغروب ظلام خفيف مناسب تمامًا لممارسة الحب، أما الكلاب فكانت تفضل أرض الفضاء المواجهة للحديقة، قطعة أرض بور يحيطها سور حديدي قديم وصدئ، مائل ناحية التراب، تمتلئ بأكوام الرمل والطوب والحفر المبعثرة في أرجائها، تتجمع الكلاب بعد حلول الليل بفترة، أول كلب يأتي - من حيث لا يعلم أحد - يأخذ فى النباح لفترة، وسرعان ما يظهر كلب آخر، يأخذان فى شم بعضهما وهما يهزان ذيليهما، ربما رفع أحدهما قدمه الخلفية وبال على الأرض، ثم يجريان بعيدًا ويعودان مرة ثانية، بعد برهة يأتي كلبان آخران، تتبعهما بشكل زوجى أو فردى كلاب أخرى، حتى تتجمع قبيلة صغيرة من الكلاب، من مختلف الأحجام والألوان، ذكورًا وإناثًا، كلاب فتية وأخرى كبيرة، عادة لا تحتك الكلاب بأحد من المارة القلائل، العائدين من أعمالهم، الذين يمشون ببطء وفى صمت، وهم يجرُّون أقدامهم في طريقهم إلى بيوتهم، تترك الناس تمر في أمان، لكن أحيانًا تفعلها الكلاب بقسوة، عندما تكون فى مزاج سيئ، فتبدو غاضبة ومتوترة، تضرب بأقدامها فى الأرض، وترفع رؤوسها نحو السماء، تأخذ في النباح بشكل مخيف، تقطع الطريق فلا تسمح بمرور أحد، حتى إن القطط فى الحديقة المقابلة، تنكمش على نفسها تحت

جذوع الأشجار بلا حراك. تحرص الكلاب على التحرك معًا، لا تفترق عن بعضها، وإن حدث فتنقسم إلى مجموعات أصغر، تتكون من أربعة أو خمسة كلاب، تنهمك في الجرى وهى تنبح بشكل متقطع، أو في الاحتكاك بأجساد بعضها، وعندما تكتفي من اللعب تبدأ فى عراك دموى لا يتوقف إلا قبيل الفجر، فيعلو نباح مصحوب بالألم، تتخلله فترات هدوء قصيرة، ولكن سرعان ما يبدأ النباح من جديد. ورغم أن ما يفصل بين المكانين هو مجرد شارع صغير، إلا أن الكلاب لم تفكر ولا مرة واحدة في زيارة الحديقة، أو اتخاذها مأوى لها، وظلت طوال الوقت تفضل تراب الأرض البور الذى يعلو في السماء عقب المشاجرات التي لا تتوقف.

القطط لم تستخدم الحديقة للحب فقط، بل كمسكن آمن لها، حيث تتسرب قبل الغروب من خلال أسياخ السور الحديدي، أحيانًا كانت القطط تقفز في الهواء، أو تسارع بالعدو خلف بعضها فوق الحشائش وعلى الممرات المبلطة، أو تتسابق في صعود جذوع الأشجار، قبل أن ترقد في كسل تحت الشجر.

ذات ضحى، في عربة المترو، جلس في مواجهتي فتى وفتاة، كان الحب مكتوبًا على جبينيهما، بدت الفتاة أكثر خجلاً، بحيث ظلت طول الوقت تنظر إلى أسفل، أو إلى وجه حبيبها وهو يحدثها بصوت منخفض. لحظتها ابتسمت وفكرت أنهما مناسبان تمامًا للمقعد الخشبي، ومناسبان أيضًا للحديقة، واكتشفت أن الحديقة الصغيرة لا يدخلها العشاق، فقط أسر قليلة أو أناس فرادى مثلى..

"حديقة بلا عشاق ليست حديقة". قلت ذلك وواصلت وأنا أرقبهما خفية: "الحديقة تحتاج إلى عاشقين مثلهما".. بالتأكيد ستصبح الحديقة مختلفة لو أتيا لزيارتها، سيلمحان المقعد الخشبي بعد مرورهما من البوابة، وبتلقائية يتوجهان نحوه ويجلسان عليه متقاربين، ليس لأنه المقعد الوحيد في الحديقة، وليس لأنه قريب من البوابة، فقط لأنهما يؤمنان بأن المقاعد الخشبية خلقت من أجل العشاق، وأنه سيسمح لهما برضا وامتنان، يأن يحفرا أول حرفين من اسميهما على ألواحه، وأنه بالتأكيد سيستمتع بالإنصات إلى كلامهما الحلو.

بالأمس كنت عائدًا في وقت متأخر جدًّا، تحديدًا جئت في آخر قطار، كنت الراكب الوحَيد الذى نزل على الرصيف، عمال وردية الليل انشغلوا في جمع أدوات النظافة، بعد أن انتهوا لتوهم من مسح الرصيف بالماء. ما الذى دعاني إلى رفع رَأسي نحو السماء بعد أن خرجت من المحطة؟ رأيت القمر يملأ السماء فوقى بشكل لم أشاهده من قبل، قلت في نفسى: "من الممكن أن أشوف إبرة مرمية في الطريق".

في الليل المتأخر، وقفت أمام بوابة الحديقة، لمحت المقعد، بدا وكأنه يغتسل بنور القمر، وجدت البوابة مغلقة بغير إحكام، دفعتها بقبضة يدى، فانسابت الضلفة الحديدية متحركة وهى تحدث صريرًا خافتًا. مشيت نحوه، ولأول مرة منذ أن عرفت الحديقة أجلس على المقعد الخشبي، مددت رجلي أمامي واتكأت بظهري عليه، وأنا أنظر إلى حذائي، وأستمع إلى هسيس يأتي من بين الحشائش، خمنت أنه للجنادب، هناك على الممر كانت قطة مرقشة ترقد في هدوء، رمقتني بعينيها قليلاً ثم

أسندت رأسها على الأرض، فجأة توقفت الحشرات عن إصدار أي صوت، وساد صمت تام، كنت أسمع دقات قلبي، بعد فترة رقدت على ظهري، شعرت بخشونة الألواح، نسمات ناعمة تداعب جسدي بلطف، فتشعرني بخفته وجماله، كلام كثير يملأ دماغي، مئات الجُمل تتشكل بسرعة قبل أن تختفي، تاركة المكان لجُمل أخرى، وهى تحاول بدأب العثور على طريق للخروج.

في الأعلى أخذ القمر يتحرك ببطء، وخيل لي أن الفتاة الساكنة على سطحه مألوفة لي، تشبه إلى حد كبير جارتي "س"، أخذت أقارن في أوجه الشبه بينهما، عندها أشارت لي بيدها، قلت في سرى: "يخلق من الشبه أربعين"، قبل أن توليني ظهرها وتمشى مبتعدة، وهى تتماهى في النور حتى تختفى من على سطح القمر.

(٦)

فكرت مع نفسي أن شقتي في الدور الأرضي لا تتيح لي رؤية القمر أو حتى الشمس، لا توجد بها شرفة تمكنني من رؤية القمر والنجوم، حتى لو نظرت من شباك الحجرة، فلن أرى من خلال قضبانه الحديدية سوى قمم العمارات المواجهة، بالنسبة لي الشمس ليست مهمة، فمن ذا الذي يرغب في التحديق في قرص الشمس؟ نورها يعرف طريقه جيدًا للتسلل إلى شقتي، لكن القمر يبدو غير قادر على ذلك، سيكون هذا من الأسباب التي ستدعوني جديًّا، إلى التفكير في البحث عن سكن آخر، بالطبع لن يكون في الدور الأرضي، ربما يكون الدور الأخير، أو شقة صغيرة على السطوح ستكون مكانًا مناسبًا تمامًا، وستكون فرصة لصنع حديقة صغيرة من الصبار، تبدو كصورة رومانسية بديعة، تخيل: قمر يطل عليك من السماء، وليل، وصبار، ونسمة هواء باردة تدغدغ الجسد الساخن، إنها الجنة بالنسبة لي.

منذ أيام، كان عندي جاري "س"، الذي قرر الانتقال إلى شقة أخرى، جاء لترك بعض الأشياء لديَّ مقرًّا بحزم: "فقط يومان أو ثلاثة وسآتي لأخذها"، قال هذه الجملة عندما فتحت الباب، في البداية لم أفهم

المقصود، خمنت بسرعة أن هناك خطأ ما، لكن ابتسامته ووقفته ثابتًا في مكانه دون حركة واحدة، جعلتني أعرف أنه لم يخطئ، أخذت أبحث في رأسي عما وراء الجملة التي ألقاها ثم أتبعها بضحكة قصيرة، أعقب بعدها: "الجيران لبعضها"، عندها خطا إلى الداخل بثقة، ومن خلفه أحد العمال يحمل بعض الأشياء، أشار بيده إلى الحائط: "هناك". كانت حاجياته التي وضعها بلا ترتيب، عبارة عن بعض الأكلمة والبطاطين وقطع الموكيت ومواسير الستائر، قعد على الكرسي في انتظار كوب الشاي، مد قدميه حتى لامستا الحجر، تأمله قليلاً قبل أن يرفع عينيه إلى الحائط المقابل، لوهلة اعتقدت أنه يبحث عن شيء ما، وشعرت بالراحة لأن الحجر القابع أمامه لم يثر فضوله، فجأة أشار بإصبعه إلى الحائط وقال: "حلوة".

أمتلك أربع لوحات، ثلاث منها كانت هدايا من الأصدقاء في مناسبات مختلفة، أما الرابعة فقد اشتريتها من أحد المعارض الفنية، أعلق اللوحات بجوار بعضها على أحد حوائط الصالة، أحيانًا كنت أفكر في أن الصالة تحولت إلى معرض فني مختلط، فبالإضافة إلى اللوحات والحجر توجد عدة صفوف من الكتب، ترتفع بمقدار متر بجوار الحائط، هناك أيضًا تماثيل خشبية صغيرة، لجمال وحمير ومعيز، وقطط بأوضاع مختلفة.

أحضرت الشاي، أخبرني جارى "س" أنه لا يقرأ أصلاً سوى الجرائد، قال ذلك عندما لمح الكتب، ثم واصل: حتى الجرائد ليست بشكل دائم وإنما حسب الظروف، وأنه عندما يمسك بكتاب يشعر على الفور بالصداع. وفى اللحظة التي أخذ يتأمل فيها كومة من الجرائد وصفوف الكتب،

قلت: "اشرب الشاي قبل أن يبرد"، كنت أعرف أنه سيتكلم في مواضيع كثيرة، مبديًا بعض النصائح من رجل عاش ورأى ما لم يخطر على قلب أحد، وبين كل نصيحة وأخرى سيأخذ رشفة من الشاي، خطر لي أنه ينتسب إلى مصاصي الدماء، بالطبع هو ليس محترفًا أو مدربًا مثل الآخرين، لكنه يمتلك المقومات الأولية لأي مصاص دماء، الموهبة الفطرية الكامنة بداخله، التي لا تحتاج إلا لقليل من الصقل والإعداد، ليمارس مهامه بمهارة فائقة، دار بعينيه مرة ثانية في المكان، كان يرمق الحجر بفضول واستغراب، جسه بمقدمة حذائه، بدا لي وكأن الحجر انكمش على نفسه، وهو يخفي بداخله كثيرًا من الخوف والقلق، ثم نهض جارى "س" فجأة وهو يقول: "لقد تأخرت، ولابد أن أمشى"، لم يحدد على ماذا تأخر، وأنا بدوري لم أتطوع لأساله عن ذلك، أو حتى أقول له بعزومه مراكبية: "لسه بدرى". نهضت أنا أيضًا لأفتح له الباب لكنه سبقني وأمسك بالمقبض، عاند معه قليلاً، ولكنه نجح في النهاية فى فتح الباب، وخرج تاركًا أشياءه.

كل فترة أسلى نفسى بعمل بعض التغييرات فى الشقة، مثلاً أغير من مكان اللوحات على الحائط، أو أعيد ترتيب الكتب، أرصها في صفوف تستند على الحائط، وربما أترك بعضها بلا ترتيب، لكن أبرز تلك التغييرات هي جر سرير النوم إلى الصالة، بحجة أن حجرة النوم حارة ومكتومة، كما أن الشمس تقبع على حائطين من حوائطها منذ طلوعها إلى المغيب، أو أنها أكثر دوشة من الصالة لوقوعها على ناصية شارعين، أحدهما شارع رئيسي والآخر فرعى، حتى إنني في بعض الأوقات كنت أتخيل أن الشارع

انتقل للإقامة في حجرتي، لدرجة أن صوت اشتعال عود الثقاب كنت أسمعه من فوق سريري، كما أن الصالة تقع على مدخل العمارة، بالتالي فلن أسمع سوى أصوات أقدام ساكنيها في طريقهم لصعود السلم، كل هذه الحجج أقنعت بها نفسي، التي كانت تمانع لفترة طويلة خطة الانتقال إلى الصالة، قائلاً لها في إغراء: "نوع من التغيير.. جربي واحكمي بعدها".

ما أفعله هو أنني أجمع حياتي كلها في مكان واحد، سريري وكتبي ولوحاتي وموسيقاي وأفلامي، كل ذلك بجواري وفي متناول يدي، وتحت عيني طول الوقت، ممتلكات قليلة ومرتبة.. في كل بيت أسكنه أبدأ من الصفر، يبدو البيت في أيامه الأولى واسعًا وخاليًا، فقط بعض الأشياء المهمة مثل الملابس ولوحاتي وأحجاري وسريري، والقليل من الكتب الضرورية، ويومًا بعد يوم تبدأ الأشياء في الظهور، وفي كل مرة أقول لنفسي: "لن أشترى شيئا جديدا". وفجأة تبدأ الأشياء في التراكم، وهي تشغل جزءا من الفراغ، بينما تتكاثر الكتب مكونة صفوفًا متجاورة.

الآن عندي مروحة نقالي وثلاجة وسرير ودولاب بضلفة واحدة، يشبه النوع الذي يظهر في لوكاندات أفلام الأبيض والأسود. رفضت امتلاك تليفزيون بلا سبب منطقي، لم يكن كرهي له هو السبب، ببساطة لأنني أتفرج عليه في المقاهي، وربما لأنه سيعيقني في حال انتقالي إلى مكان جديد، لكنها حجة واهية لأنني أمتلك أشياء أخرى، من الممكن اعتبارها عائقًا أثناء الانتقال، كالسرير والكتب والثلاجة، ربما لأنه مضيعة للوقت، لكن جلوسي في الظلام بلا حراك يعد مضيعة للوقت أيضًا، في النهاية لم

أستطع تحديد السبب الحقيقي لعدم امتلاكي لجهاز تليفزيون، مجرد رغبة في عدم امتلاكه، وأعتقد أن هذه الرغبة تكفى كمبرر قوى ومقنع.

حياتي تبدو ساكنة ورتيبة، أستيقظ مبكرًا كأي موظف مجتهد، أبقى لفترة في السرير، متابعا للأبواب التي تقفل بعنف، وللأقدام الهابطة على السلم في عجل أو ببطء، وهي في طريقها للشغل، ثم أنهض بتكاسل، أحرك يدي في الهواء، وأذهب إلى المطبخ، أفتح باب الثلاجة، أتأمل في تفكير العلب والأطباق الموجودة بداخلها، ثم أسحب فى النهاية علبة الجبن، أغمس فيها صباع بقسماط، وأتسلى بقرمشته وأنا أعد كوبًا من الشاي.

منذ أن أخذت سريري إلى الصالة في آخر مرة، صارت حجرة النوم فارغة سوى من الدولاب، لا أدخلها كثيرًا، فالملابس التي أرتديها في الخروج، أعلقها على مسامير دققتها في باب الحمام من الخارج، وعلى فترات متباعدة أفتح الشباك ليدخل الهواء إليها، أما غير ذلك فهي مغلقة دائمًا، وأحيانًا أنسى وجودها في الشقة.

"أنتظر شيئًا لا أعرفه"، هذه هي الجملة التي يتردد صداها بداخل روحي، أعتقد أن ما أنتظره سيجعل حياتي مختلفة، لكن ما هو هذا الشيء؟ هل هو الانتقال إلى مكان جديد، أفكر أنه عندما انتقل إلى بيت آخر، سأكون خفيف الحركة، سأحمل حجر الشيكولاتة وبعض الكتب والثلاجة والسرير فقط، وساترك مروحة السقف والكرسي وأدوات المطبخ.. لن أسكن في الدور الأرضي بعد ذلك، سأجرب الأدوار العليا، شقة صغيرة على السطح مثلاً، سيبدو العالم من تحتي، يرافقني النور والهواء والطيور والملائكة، وسأجلب صبارة ضخمة ذات أفرع متعددة، كالتي

تظهر في قصص ميكي المصورة.. أنتظر التعرف على أناس جدد.. أنتظر السفر إلى مكان جديد لم أزره من قبل، الصحراء مثلاً، أعشق التفرُّج على الجبال والرمال، في فترة التجنيد كانت وحدتي فوق قمة جبل صخري، يشرف على مدينة صغيرة، بالليل كانت المدينة تبدو ككعكة مضيئة، أما بالنهار فكنت أعتقد أنني لو رميت حجرًا سأصيب محطة السكة الحديد، أو الجامعة، أو الأحياء القديمة والمقابر، كنا حراسًا أسطوريين لمدينة أسطورية، المدينة في متناول يدى، الغيطان المحيطة بها، والنيل، والطريق السريع، والجبل الآخر المقابل.

أنتظر تعلم مهنة جديدة، تبدو النجارة مغرية بالتعلم، أو ربما أصبح سائق مترو.. أو قاتلًا مأجورًا، نعم إنها هي، قاتل مأجور، تبدو أنها المهنة المناسبة لى، يكتنفها الكثير من الغموض والإثارة، قلت في سرى: "مهنة حسنة تستحق التفكير"، مهنة تمتلك أخلاقياتها الخاصة بها، كالشجاعة واحترام الكلمة وعدم الخيانة، والتي يعد كسر إحدى قواعدها انتهاكًا صارخًا يثير الاستهجان والامتعاض، لكن يجب التفكير فى تغيير اسمها، لقد تم ابتذال الاسم بشكل كبير، من الأفضل البحث عن اسم آخر، كـ "المتربص" مثلاً، أو "الكامن"، أسماء جديدة لا تحمل أوزار الاسم القديم، نافضة عن نفسها سوء السمعة، أسماء تعيد الاعتبار إلى المهنة مرة ثانية، وفى نفس الوقت تحمل معنى شاعريًّا، وتقيم علاقة مع مفردات الطبيعة، التربص يقتضى الكمون، والكمون يقتضى الجلوس وراء جذع نخلة أو شجرة لفترات طويلة، ربما تمتد فى بعض الحالات إلى أيام أو أسابيع، مما يسمح بنشوء علاقة طيبة مع الأرض والسماء والشمس والقمر والطير والليل،

وربما يصل الأمر إلى درجة من السمو الروحاني، والترفع عن بهجة الدنيا، الصبر هو سر نجاح هذه المهنة، لا داعيَ للقلق أو التوتر مهما طالت المدة، تخيل نفسك نخلة وجدت نفسها مزروعة في هذا المكان منذ عشرين أو ثلاثين سنة، يمر عليها الشتاء تلو الشتاء والصيف بعد الصيف، وهي باقية في مكانها، متربصة وكامنة، بلا تذمر أو جزع، هكذا يفعل "المتربص" و"الكامن"، أنتظر في مكمني وأتأمل، وحين تأتي اللحظة المناسبة، سأفعلها بكل شرف، أبص في عيني غريمي بثقة، قائلاً بصوت هادئ: "إني قاتلك.. فانظر بمَ توصى"، لن أفعلها أبدًا من وراء ستار، أو من على بعد، هكذا سنتحدث مثل صديقين التقيا مصادفة، وتبادلا جملاً قصيرة وواضحة، ثم أفعلها، وأمشي بعدها في طريقي بكل هدوء.

أنتظر شيئًا ما يحدث في حياتي .. انتظر مجيء هذا الشيء.

عندما صاحت ديكة الشرفات، ونبح كلب ثم سكت للأبد، عندما كح مار في الشارع بشدة قبل أن يبصق على الأرض، عندما انطلقت سارينة مصنع بعيد، عندما نزل عصفور على الأرض، ونقر بمنقاره مرتين، ثم قفز ثلاث قفزات، وطار بعدها إلى الشجرة القريبة.. عندها صحوت من النوم، كل شيء كما تركته بالأمس، شممت رائحة خبز ساخن لم أعرف من أين أتت، وفكرت أنني جائع ونفسي في ساندويتش جبنة بالطماطم مع فنجان قهوة، وأنا قاعد في مكاني المفضل بالمقهى، وعيني على رصيف الشارع.

(٧)

كنت أسير بلا هدى على أرصفة الشوارع، الجو حار، وسخونة تتصاعد من العربات التى تزحف ببطء فى الشارع، وتطلق أبواقها بشكل يثير الضيق، أشعر بالجوع يقرص بطنى، فكرت فى إحضار ساندويتش جبنة أو قطعة شيكولاتة، والذهاب إلى المقهى، أجلت الفكرة حتى أعثر عما أبحث عنه، رصيف يسلمنى إلى آخر، أعبر التقاطعات والشوارع دون الالتفات إلى شيء، فقط عيني إلى أسفل، ابحث - ومنذ فترة - عن عملة معدنية سقطت من شخص ما، حينها قابلت مصاص دماء..

لا أدرى إن كانت تلك المقابلة حدثت مصادفة، أم عن طريق خطة محكمة، المهم أنها حدثت، هذه الظهيرة كانت فيها الشمس ساطعة بشكل يختلف عن الأيام السابقة، لدرجة جعلتني غير قادر على فتح عيني، فطأطأت رأسي إلى الأسفل، وأخذت أتسلى بإحصاء بلاط الرصيف، فكرت أنه من الممكن أن أجد قطعة نقود، وراهنت نفسي أن ذلك سيحدث بكل تأكيد، وأنها تحديدًا ستكون من فئة النصف جنيه، مررت على الكثير من البلاط، وعبرت عدة شوارع جانبية صادفتني في طريقي، وتجاوزتني العشرات من الأحذية المسرعة، دون العثور على قطعة نقدية

واحدة، بدلاً من ذلك وجدت علب سجائر مكورة بغيظ، وتذاكر مترو ممزقة، وأعواد ثقاب، اعتبرت أن عدم عثوري على قطعة النقود هو حظ سيئ، أو دليل على شؤم قادم، سيطرت عليَّ الفكرة، لابد من العثور على قطعة نقود، حتى لو استمررت فى المشى على الأرصفة إلى قدوم الليل، بل إن دماغى وضع شروطًا يجب تحققها فى قطعة النقود، أولاً: يجب أن تكون من فئة النصف جنيه تحديدًا، ثانيًا: أعثر عليها فوق الرصيف وليس فى عرض الشارع، ثالثًا: أن تكون سليمة من أى عيوب وصالحة للصرف، من الممكن أن اشترى بها لبانًا مثلا أو أمنحها لأحد المتسولين.

بدلاً من العثور على قطعة النقود المرجوة، كدت اصطدم بمصاص دماء، تمتمت بداخلي: "حظي السيئ أتى بأسرع مما كنت أتوقع"، رسمت ابتسامة على وجهى، لحين التفكير في حيلة أو مهرب، هذا إن استطعت التفكير أصلاً، فسرعة بديهته وذكاؤه الخارق، لا يتيحان أى فرصة للتملص منه، إنها نظرية أكيدة ثبت نجاحها بالبرهان والتجربة العملية، كما أننى جربتها عدة مرات من قبل.

يمكن وصف ما كنت عليه بأنه حالة من التسكع.. التسكع على الأرصفة هل هو هواية أم متعة؟ ربما هو الاثنان معًا، تبدو لى كلمة "التسكع" لطيفة ومحببة، لذا سوف أستخدمها فى وصف حالتى، سأنطقها باستمتاع وتلذذ، وكأنني أضع في فمي قطعة شيكولاتة، إذن أهوى التسكع في الشوارع، أنتقل من رصيف إلى آخر بلا هدف، أتوقف قليلاً أمام الفتارين من أجل الفرجة، أو عند باعة الجرائد، ثم أواصل المشى بخطوات متمهلة. أعرف أن البعض لا يطيق نفسه في مثل هذا الجو، ويعتبر مجرد

نزوله إلى مشوار في هذا الوقت هو عقاب إلهي شديد، رغم ذلك كنت أفضل التسكع فيما بعد الظهيرة قبل أن أعود وحيدًا إلى بيتي، توقيت خروج العاملين في البنوك والمؤسسات الحكومية، الباصات التي تنتظرهم على أطراف الشوارع، عندما يمتلئ الشارع فجأة بأصوات العربات وباعة الرصيف والكلام والدخان والشمس، كنت أراهم كحكايات تمشي على قدمين، في طريقها للبيت أو إلى عمل آخر أو مواعيد سرية، يبدو الشارع في تلك اللحظة وكأنه نسخة مصغرة من العالم، وتلك هي لحظتي الملائمة، اللحظة المناسبة للتسكع، وسط كل هذا الصخب أشعر بأني جزء من هذا العالم، من الحياة، أشارك في صنع الضجيج، وأنا على يقين من أني مجرد تفصيلة صغيرة في اللوحة الكبيرة، تفصيلة ربما تبدو غير مهمة للبعض، لكنها ضرورية لاكتمال اللوحة.

الرطوبة العالية في الجو جعلتني أشعر بالضيق، أحسست باللزوجة على جلدي، وياقة القميص تحك في عنقي، حينها قررت أن أسلك الشارع الجانبي، كان غارقًا في الظل، ونسمات هواء تندفع إليه من بين المساحات الفارغة بين البنايات، مما يجعله مناسبًا للهروب من سخونة الشارع الرئيسي، ما إن دخلت الشارع بعدة خطوات، ما إن لامست نسمة وجهي وصدري، ما إن فكرت أنه اختيار صائب، ما إن حدث كل ذلك حتى وجدته أمامي، منتصبًا في وقفته مبتسمًا كعادته، مادًّا يديه إليَّ في ترحاب احتفائي، لم تكن هناك فرصة للتراجع أو الانفلات، بدا الأمر كفخ تم نصبه بمكر وإحكام.

لقد قابلت مصاص دماء..

في هذه المدينة، يخرج مصاصو الدماء في وضح النهار، بل إنهم يستيقظون من نومهم مبكرًا، نشيطين ومستعدين بشكل جيد لعمل اليوم، يكونون أول من ينزل إلى الشوارع، قبل أن يبدأ عمال النظافة في إزالة بقايا الليل، أو يخرج الخبازون من أفرانهم عيش الصباح، يطبقون شعارهم الخالد، والذى يحرصون على ترديده قبل النوم: "كلما بكرت فى النزول، زادت حصيلتك من الصيد". يسلى مصاصو الدماء أنفسهم بالتسكع - مثلى - في الشوارع، بالحثين عن ضحاياهم بتؤدة، وفى أوقات فراغهم يسلون أنفسهم بمعاكسة البنات بغزل يصبهن بالدوخة، ستجدهم في المقاهي ودور السينما، وعلى نواصي الشوارع يدلُّون الغرباء التائهين إلى مقاصدهم، ويمازحون سعاة المكاتب وعمال المحلات، يجيدون ارتداء الملابس واختيار الألوان، هم بحق ملوك الأناقة، يبدون بهيئتهم تلك كأصحاب نعمة أو سلطة، يمتلكون ألسنة حلوة تليِّن الحديد العاصي، تعلو الابتسامة وجوههم بشكل دائم، بينما تحافظ أحذيتهم على لمعتها طول الوقت دون نقطة تراب واحدة. أما الجو الساخن والشمس الحارقة فلا يمثلان لهم أي عائق ولا يسببان لهم ضيقًا، رغم ذلك هم لا يتواجدون كثيرًا في الشوارع الرئيسية، فما إن يقضون مصالحهم فيها حتى يسارعوا بالعودة إلى الشوارع الجانبية، الغارقة في ظل دائم يغري بالبقاء.

بلا ترتيب وجدتني في مواجهة مصاص دماء..

يبدو أن وجودهم في الحياة هو شيء ضروري، كضرورة وجود الخير والشر أو الغنى والفقر، صاح في وجهى: "رب صدفة خير من ألف ميعاد"، ثم أكمل بعد أن أطلق ضحكة صغيرة: "كنت أفكر بك منذ

دقيقة واحدة"، ابتسمت من أثر المفاجأة، وفكرت: "هل أنا صيده الأول في هذا اليوم، أم أنه متخم وليس له نفس لمزيد من الضحايا". أمسكني من يدى وسحبني في اتجاه المقهى، هو يقول: "أنت ابن حلال.. تعال"، فانسقت معه بسهولة، وسرعان ما جاء فنجان قهوتي، موضوعًا فوق طبق أبيض صغير، وبجواره كوب من الماء المثلج، شممت رائحة القهوة المنبعثة من الفنجان، أغمضت عيني لبرهة، ثم أخذت نفسًا عميقًا في انتظار الآتي.

عادة لا يتيح مصاص الدماء لأحد فرصة الحديث في حضرته، الشيء الوحيد الذى يسمح به هو الإيماء بالرأس بين الحين والآخر، أو التمتمة ببعض الكلمات، التي يفهم منها إعلان الموافقة التامة على ما يبديه من آراء، أو أنك ما زلت متابعًا لكلامه، و لم تشرد منه وراء البنت التي مرت من أمامكما. وهذا ما حدث معي، لم أنطق بكلمة واحدة، حتى القهوة لم أستطع التركيز في مذاقها، وشربتها بدون أي إحساس. اعتبرت نفسى سيئ الحظ، وأن هذا اليوم ليس من أيامى الجيدة، فأن ينتهى يومي بصحبة مصاص دماء، هو نوع من الامتحان القاسي الذي لا أحب تجربته، أو على الأقل لا أحب اجتيازه في هذا اليوم تحديدًا.

فكرت أنه من المناسب أن أخبره بأن لدى لقاء مهمًّا محددًا سلفًا ولا يحتمل التأخير، أو أن فتاة ما تنتظرني في مكان قريب، وليس من الذوق تركها تنتظر هكذا، إلا أن ضحكته التي أطلق لها العنان، والتي تخبرني بيقين لا يقبل التأويل بأنه مصاص دماء سعيد، ولا يجب بأي حال من الأحوال تكدير هذه السعادة بأعذار واهية، وأنه بالنسبة لي أهم وأغلى من أي لقاء، أما عن الفتاة فباتصال صغير يمكن لها أن تنضم إلى القعدة،

وأنه ـــ بلا جدال ـــ يرحب بذلك، ستجبرني تلك الضحكة على إلغاء الفكرة تماما، فحسب معلوماتي وخبرتي، لم يفلح أحد من قبل في التملص من قبضة مصاص دماء مبتدئ، فما بالك بواحد محترف ومخضرم مثله، ما إن انتهى من ضحكته السعيدة حتى أعلنها صراحة وعالية، ليسمعها بقية الرواد في المقهى: "لا أعرف لماذا.. ولكنني والله.. أحبك لله وفى الله".

كنت أبدو للآخرين مثل مسكين أو يتيم أو غريب، يلقون عليَّ نظرة شفقة ثم يواصلون طريقهم، أقعد منكمشًا على نفسي، صامتًا إلا من هزة للرأس، أو تعبير بالوجه ينم عن الدهشة أو التعجب أو الامتعاض، بينما مصاص الدماء يمارس عمله بمهارة فائقة، لمحت ثلاثة أو أربعة منهم، يقفون على رصيف الطرف الآخر للشارع، كانوا صغارًا، يتراءى لهم المستقبل ماثلاً أمام أعينهم، بينما يعيدون كل فترة ـــ مع أنفسهم ـــ ترتيب خططهم وأولوياتهم، وهم يحلمون بالمجد والشهرة، أحدهم انشغل بتدوين شيء ما في مفكرة صغيرة، بينما اكتفى الباقون بالمراقبة، خمنت أنني مجرد درس عملي للمبتدئين، وربما أكون موضوع سؤال الامتحان، الذى سيؤهلهم للتخرج وممارسة المهنة، حينها رسمت على وجهى ابتسامة تنبئ أنني حالة جيدة ومطيعة، وبالتأكيد سيستفيد منى مصاصو الدماء الأشبال بشكل باهر.

عادة يكون مصاصو الدماء من الذكور، أما النساء فهن نادرات جدًّا، أعلم أنهن موجودات، لكنني لم أصادف حتى الآن مصاصة دماء واحدة، أحيانًا كنت أفكر هل يختلف أداؤهن عن الذكور، مرجحًا أن ذلك أكيد، على اعتبار أنهن يمتلكن مهارات وأدوات مختلفة، ربما سأكون أقل تذمرًا

أو مرحِّبًا بالأمر، لو أن من صادني منذ قليل مصاصة دماء، على الأقل سأكون مستمتعًا بوجودي في حضرة وجه حسن وصوت حسن، ساعتها سأتركها تمارس عملها بكل محبة وامتنان، وربما أقترح عليها دعوة الأشبال الصغار لينضموا إلى القعدة، بدلاً من وقوفهم على الرصيف، ويشربوا "حاجة ساقعة" يرطبون بها على أبدانهم، وبالمرة يستفيدون أكثر من الدرس العملي.

وعلى خلاف السائد لدى الناس بأن مصاصي الدماء يخرجون في الليل فقط، أو أنهم يغرسون أنيابهم في رقاب ضحاياهم، وأنهم يتميزون ببشرة شاحبة، وأنهم يخافون بشدة من نور الشمس، كل ذلك غير حقيقي، فهم يتواجدون في كل فصول السنة، وفي الليل والنهار، كما أنهم لا يستخدمون أنيابهم في مص الدماء، تلك وسائل تقليدية تم تجاوزها منذ زمن، عجلة التطور السريعة أدركت مهنتهم، فهم يمتلكون ـــ الآن ـــ وسائل أخرى لا تخطر على البال، لكنها سريعة وفعالة في أداء مهمتها.

عندما غادرني مصاص الدماء، كنت مشوشًا ومنهكًا ، لدرجة أنني بذلت مجهودًا كبيرًا في محاولة تذكر ما الذي أفعله في المقهى. كان الشارع في الخارج غارقًا في الظل، وبين الفينة والأخرى تمرح فيه نسمات باردة، وبنات جميلات يزداد عددهن بشكل غريب، كن يتهادين على الرصيف، مارات من أمامي في إغواء مرعب، و لم تكن لدى القدرة على الكلام أو النهوض من مكاني.

(٨)

لم تكن لدي رغبة في النهوض من السرير، شعرت بذلك ما إن فتحت عيني واستوعبت المكان من حولي، بدا كل شيء كما تركته قبل نومي، الستارة مسدلة، والكتب مرصوصة في مكانها، كان الجو بالداخل مكتومًا وحارًّا، يشي بوجود حرارة أشد سخونة وشمس ساطعة بالخارج، شُفتها من مكاني وقد أنارت الحمام، وتسرب قليل من النور الخافت إلى الممر، هذا الممر الذي يبلغ طوله مترين تقريبًا، يضم في حضنه كل شقتي، حيث تفتح عليه أبواب حجرة النوم والحمام والمطبخ. أحسست بالعطش الشديد، راودني لفترة منظر الماء البارد، وهو يتدفق من فم الزجاجة، نقط الماء المتسربة من حنفية المطبخ أشعلت تلك الرغبة، بلعت ريقي، ولكي أبعد الماء عن تفكيري أدرت عيني في عتمة المكان، فكرت: كيف تطيق الكتب والسرير والحوائط، البقاء هكذا في مكان ثابت لا تغيره أبدا؟ ماذا يحدث لو أنها تحركت بالليل وغيرت من أماكنها، أو اتخذت أوضاعًا أكثر راحة لها، ينتابني كثيرًا شعور أن الكتب لا تفضل المكان أو الطريقة التي أرصها بها، وأن السرير يود لو يبتعد قليلاً عن الحائط، أو يغير موقعه كل فترة، ليكسر حالة الملل من المكوث في مكان واحد للأبد، لذا كنت أقضي الكثير من الوقت في إعادة

رص الكتب، وترتيبها بشكل مختلف في كل مرة، منتقلاً بين الترتيب على أساس الحجم، أو النوع الأدبي، أو التاريخ الزمني للكتاب.

أغمضت عيني وفتحتهما بعد ثوان. سمعت خبطات خافتة على الشباك، رغم خفوتها إلا أنها كانت واضحة، خمنت في سري: إنه أحد عيال العمارة يلعب، كتمت نفسي وأرهفت أذني، كان الصمت هو السائد، ولم أسمع أية حركة بالخارج، عادت الخبطات مرة ثانية، تحديدًا ثلاث خبطات متتابعة، أعقبها سكون طويل، تساءلت مع نفسي: هل أفتح الشباك أم أدعه يخبط براحته؟

حاولت المقاومة بأن أقفز من السرير مرة واحدة، أعطيت الأمر لجسدي، ارتفع رأسي قليلاً ثم تهاوى سريعًا على المخدة. عدم الرغبة في النهوض لا تعبر بشكل دقيق عن الحالة التي وجدت نفسي فيها، ربما تكون الجملة الأصح لوصف حالتي: لم تكن لدي القدرة على النهوض من السرير. فبقيت فيه بلا حراك، أحدق في العتمة.

"نذرت الصوم فلن أكلم اليوم إنسيا"، هكذا نطقتها في سري، قلتها بحماس وإيمان، بصوت ـــ تردد بداخلي ـــ واضح النبرات لا أثر فيه للنعاس، لم يكن هناك سبب محدد يدعوني إلى اتخاذ هذا القرار، ولم يكن أيضًا رد فعل نتيجة عدم قدرتي على ترك السرير، فقط قررت عدم الكلام، الفكرة سيطرت على تفكيري فقررت تنفيذها على الفور، كل ما عليَّ فعله أن أضم شفتي بلا حراك، وأترك نفسي للصمت.

عندما تسيطر فكرة ما على دماغي، لا أملك حيالها سوى الانصياع التام، وتنفيذها بدقة متناهية وبلا أدنى خطأ، حتى لو كانت أفكارًا غير منطقية أو مفهومة. تبدأ الفكرة بمجرد اقتراح صغير، ينبثق بشكل مفاجئ في دماغي، اقتراح يمكن نفي حججه ببساطة وينتهي الأمر، لكنه يبدو مراوغًا ولطيفًا، يتسرب بخفة ونعومة إلى كل خلية في المخ، يتشبث بأماكنه فارضًا ــ في النهاية ــ رأيه بالقوة، لا يترك مجالاً للمساومة أو التفاوض، أو حتى تقديم تنازلات من كلينا للوصول إلى حل وسط، مرة سيطرت عليَّ فكرة أنني لن أركب المترو إلا إذا كان السائق بشارب، بدا الأمر صعبًا وكل المتروهات التي تمر على محطتي، يقودها سائقون بلا شوارب، وكأن الأمر مدبر من أجل تعذيبي، لكي أبقى هكذا بلا حراك على المقعد الحجري، أحدق في وجوه السائقين إلى ما لانهاية، ماذا يحدث إذن لو نحيت تلك الفكرة جانبًا، وركبت أول مترو قادم؟ هناك يقين لا يحتمل ذرة واحدة من الشك، يخبرني بكل هدوء وإيمان: بأنه لو حدث ذلك، فإن العالم سينهار فجأة، أقله زلزال قوى يضرب شريط القطار، فيزحف المترو على جانبه محطمًا ومتحطمًا، أو يحدث ما أخشاه ويبث القشعريرة في جسدي، شيء نسبة حدوثه ضئيلة وتكاد لا تذكر، سلك كهربائي عار، ولسبب ما لامس الدودة الحديدية المتحركة، تخيلوا ماذا يحدث للمئات المحبوسين بداخلها، عندما ينطلق في السماء صراخ ورائحة شواء محترق.

مرة أخرى قادتني فكرة إلى اقتحام الحديقة، في وقت متأخر من الليل، والتمدد على مقعدها الوحيد. أرى نفسي في تلك الحالة كشخص مسحور، هناك شخص آخر يقبع بداخلي، له نفس صورتي وسماتي، أشعر

به وهو يتمدد ويأخذ راحته على الآخر، يعطي الأوامر لساقي ويدي ويأمرهما بالتحرك والتوقف، هو من يضع الحروف والكلمات على طرف لساني، وينصت باستمتاع إلى نطقهما، وكأنني مجرد غطاء له، قناع يتخفى وراءه ليمارس نزواته ورغباته الغريبة.

بالطبع سوف أستثني "سيرين" من هذا النذر، هي الوحيدة التي أرد على اتصالاتها وفي أي وقت، بسببها صالحتني الأحلام، فمنذ أول مرة قابلتها في الحلم، شكوت: "أحلامي قليلة يا سيرين"، كنت أخشى عدم رؤيتها مرة أخرى، حينها وضعت يدها على جبهتي، تمتمت قليلاً وقالت: "لم تعد كذلك"، يدها طرحت البركة في أحلامي، من يومها وأنا أحلم كل ليلة تقريبًا، ماذا لو عشت في حلم دائم، أدخل حلمًا ولا أخرج منه أبدًا، أو يسلمني حلم إلى آخر ثم آخر، وهكذا إلى ما لانهاية، تبدو لي الأحلام أكثر رحابة من الواقع، لا مكان فيها للمنطق، ولا وجود للقوانين التي تتحكم في حياتنا، الحلم هو الحرية الكاملة، منقوش على بوابته بخط واضح: "يا فتى.. اترك عقلك، وسمّ الله، وادخل برجلك اليمين"، ففعلت ودخلت.

كنت أفعل ذلك من قبل ودون الحاجة إلى النية، وأيضًا دون وجود رغبة حقيقية في ممارسة الكلام. لكن الأمر لم يكن يكتمل حتى النهاية، مع أول رنين تليفون تنكسر حالة الصوم عن الكلام، وحدها مكالمات الأصدقاء هي التي كانت تجرني إلى الكلام، حتى إنهم تعودوا ـــ أثناء مهاتفتي ـــ على القول بصيغة الاستفهام: "استيقظت للتو؟" أو: "مازلت نائمًا؟"،

ينطقونها بصيغة استنكارية. كان عليَّ في كل مرة أن أتنحنح قبل الرد على الهاتف، أو أسارع بالقول: "أبدًا.. أنا صاحٍ منذ الصباح".

لكن في تلك اللحظة التي تحوطني فيها العتمة، وأنا ممدد بلا حراك على سريري، قررت وبلا سبب واضح الصوم عن الكلام. أنا بطبعي لا أتكلم كثيرًا، ما أفعله هو أني أدخر طاقتي لأشياء أخرى، مثل الحركة أو التفكير أو التأمل، أو حتى الفرجة على خلق الله، فبعد تجارب كثيرة، وجدت أنني بعد ساعة أو أكثر من الدخول في مناقشات وحوارات، أحس بالدوخة وأنني على أهبة السقوط على الأرض، وأضطر إلى أن أسكت تمامًا عن الكلام لعدة دقائق، حتى أستعيد توازني. ربما فسر بعض الأصدقاء سكوتي على أنه انسحاب من المناقشة، أو عدم الحماس لها، وحتى أبدد ظنونهم، أقول لهم ما أعتبره حكمتي: "أصمت لكي أسمع العالم"، ثم أتسلى بشرب القهوة وأنا أتابعهم في صمت.

أحيانًا أتوق إلى شهوة الكلام، أتأمل في خروج الجمل بمثل هذا التدفق والتركيب، وهي توضح معنى أو تشرح فكرة، وأتساءل: كيف تكتسب الكلمة جمالها أو قبحها؟ الكلمة سحر، هذا حق، تسحر المستمع في لمح البصر. كنت أبرر الأمر لنفسي بأنه يحتاج إلى تمارين تبدأ منذ الصغر. الكلام مهارة يتم صقلها وتحسينها بمرور الأيام والسنين، أتذكر أنني وبقية العيال، كنا نقف في الصباحات الباكرة، وقبل أن تشد الشمس حيلها، كنا نقف صفًا واحدًا، بهدوم مقطعة ومتسخة، حفاة الأقدام والتراب يركب سيقاننا النحيلة، ونحن نبص على الجبل العالي القريب، ثم ينطلق كل واحد منا في الصياح، بأعلى ما تسمح به حنجرته، كانت أصواتنا

الرفيعة تدوي بحرية في الخلاء، عابرة حزام الحلفاء والترعة والغيطان، وهى تتلاشى كلما ابتعدت حتى تختفي تمامًا، هل كنا نتوقع أن تنحت أصواتنا صخور الجبل؟ أم تحرك جريد النخيل؟ كان المارة ينظرون إلينا بغضب من فوق حميرهم، لكنهم يكملون سيرهم في صمت، حميرهم أيضًا ترمقنا بنظرة طويلة، ثم تهز رؤوسها وذيولها وهى تمشي في صبر، بعد كل صيحة كنا نصمت، محاولين سماع صدى صيحاتنا بلا جدوى، أين يذهب الصوت بعد طلوعه من أفواهنا؟ هل يستمر في طريقه؟ أم يتبدد ويختفي وكأنه لم يكن؟ وأين ذهبت أصوات الموتى؟ هل ما زالت موجودة تجوب العالم، أم ماتت معهم؟. بعد فترة انسحبت من اللعبة، باحثًا عن ألعاب أخرى تمتلئ بالمتعة والمغامرة، كلعب السيجة، أو تسلق نخل الجيران في فترة القيلولة، أو صيد السمك بالسنارة وإعطائه لكلبى المربوط خلف البيت.

عادة تكون الوسائل التي تجبرني على الكلام، إما الخروج من البيت لمقابلة الأصدقاء، أو الرد على الهاتف، بالنسبة للخروج فأنا لم أقدم عليه منذ عدة أيام، أما الهاتف ففكرت أن أجعله صامتًا أو أغلقه تمامًا، وأما احتياجاتي المترلية فمقدور عليها، يوجد في الثلاجة بعض علب الجبنة ومربى التين التي أحبها، وعندي ما يكفيني من الشاي والسكر، من الممكن أن أبقى هكذا لعدة أيام أخرى، دون الحاجة إلى الكلام مع أحد.

أما بالنسبة للأشياء الضرورية، فبائعة الخبز تفرش أكياسها على منضدة في الشارع، سأختار كيسًا ثم أتقدم إليها في جلستها على الرصيف، تثرثر مع إحدى الجارات، ستمد يدها دون أن تقطع حديثها مع الجارة، فأضع في

اليد النقود، وأمشى إلى الشجرة المواجهة، التي تقعد تحتها بائعة الخضراوات، سأرفع قطعة الخيش المبللة بالماء، أنتقى حزمة جرجير وبقدونس وكسبرة، وأمنحها النقود في يدها الممدودة، ثم أمشى إلى العربة الكارو الواقفة على مقربة، أسحب كيسًا من الشنطة المعلقة في حافة العربة، وأملؤه بالطماطم والخيار، يزهما الولد الصغير وينطق بالسعر وهو يمد الكيس نحوى، فأمنحه النقود وأنتظر الباقي، ثم أعود بكل سهولة إلى الشقة.

في زيارة لصديقي الشاعر "س" أطلق على سريري اسم التابوت، وقال: "الشقة تشبه المقبرة، بص.. عتمة تقيم معك في المكان، وجدران تمتلئ بقطط مرسومة، وحاجيات قليلة.. ماذا ينقص؟"، ثم وقف بحوار الحجر في منتصف الصالة، وأنشد قصيدته المشهورة: "عن الذي يُربّى حجرًا في بيته" قبل أن يفتح الباب ويغادر. ربما استأت وقتها من التشبيه الذي أطلقه على سريري، لكن مع مرور الوقت وجدت أنه ملائم تمامًا، وبدأت أستخدمه في حواراتي، عندما ألمح نبرة سخرية قائلاً: "أمتلك تابوتًا على مقاسي ومقبرة لا تليق إلا بعظيم"، إنها ممتلكاتي، فقط الأشياء الضرورية للحياة ولا شيء آخر.

اليوم سأرقد في تابوتي صامتًا وساكنًا، أكرر في سري: "مقبرتي هي عالمي.. مقبرتي هي عالمي"، أتأمل العتمة التي تحوطني، في انتظار القيامة من جديد.

(٩)

وجدتني في إحدى المقابر، جالسًا فوق حصير حلف قديم، مفروش فوق ديوان طيني، نبت من حائط أحد المدافن، يحوطني بياض الحوائط ورائحة تراب وشمس حامية. كنت مستغربًا للأمر وتساءلت في سري: ما الذي أتى بي إلى هنا؟ وما الذي أفعله في هذا المكان أصلاً؟ بجواري تواجد ولد نحيل يرتدي جلبابًا من الكستور، انشغل في إعداد الشاي، وهو يترنم مع نفسه بأغنية لا أعرفها.

قدامي وعلى بعد مسافة، تراءت كتلة من البيوت القليلة المتلاصقة، يبزغ الدور الأخير منها كالحًا وضئيلاً، غير مطلي بأي لون، تتناثر على حيطانه طاقات صغيرة بجوف أسود، بدت لي كعيون بلا جفون. يأتيني بين حين وآخر، صوت عربات تمرق بسرعة على الأسفلت، خمنت أن الطريق يقع وراء البيوت. وجدت قدامي عمودين من حطب "السيسبان" مغروسين في الأرض، مُدَّت فوقهما "سباتة" من البوص، مربوطة من ناحية بحبال رفيعة من الليف في العمودين، ومن الناحية الأخرى في أعلى حائط المدفن خلفي، كان وابور الجاز محطوطا على دولاب خشبي قصير من غير أبواب، مبقع بالزيت والدهون، مرصوص في خزانته السفلية، برطمانات

الشاي والسكر والينسون، وعلب المعسل الورقية، ولمحت بجوار الدولاب شيشة وحيدة.

سألت نفسي: هل أنا في حلم؟ كل شيء حولي يشي بالواقع، الأصوات، الروائح، الولد النحيل، ذباب لحوح، إذن كيف وصلت إلى هذا المكان؟ وكم مرَّ عليَّ من الوقت هنا؟ أشعر وكأنني موجود منذ القدم. هل أنا على سفر ونزلت هنا للاستراحة وانتظار مواصلة أخرى؟ لكن المكان بعيد عن طرق المواصلات، ماذا أفعل في مدينة الموتى؟ هل أنا حي أم ميت؟

لم أكن خائفًا أو قلقًا، فقط كنت مندهشًا لوجودي هنا، المكان ليس غريبًا عليَّ، وكأن هناك ألفة بيني وبينه، ربما أكون أعرفه، أو عشت به لفترة، أو مررت به كثيرًا، أو قرأت عنه في كتاب ما، ربما شاهدته في أحد الأفلام، ربما.. بدت الأمور مختلطة في ذهني بشكل مربك ومحير.

في مواجهتي تقع جنينة صغيرة، بها ثلاث شجرات مانجو ونخلة وحيدة، محاطة بجدار طيني، به باب حديدي مغلق، أسياخه علاها الصدأ ومعوجة قليلاً، ومسور من أعلى، بجريد ناشف، وقطع زجاج مكسور، يمتد من فوقه فرع ضخم لشجرة مانجو، يلقى بظله على جزء من الطريق، وبئر الماء والسبيل. وبنت تبيع الخضراوات، لم ألمح البنت منذ وعيت بوجودي هنا، بدت لي وكأنها أتت من الفراغ، لم تكن موجودة لا هي ولا خضراواتها منذ قليل. "المكان يلعب معي" قلتها في سرى، وأخذت أفكر في كنه المفاجأة التالية التي سيخرجها من جرابه السحري.

خلعتُ حذائي وتربعت على الحصير، أسندت ظهري على حائط المدفن، تركت نفسي تستمتع بنسمات خفيفة أخذت تهب من وقت لآخر، شممت فيها ما يشبه روائح الجوافة والبرسيم. قلت في نفسي: "لابد أن هناك جنائن وغيطان قريبة". المكان بدا مريحًا لي على الرغم من غرابته، سلام هبط على قلبي كالبرد، وأرواح طيبة تأتي وتغادر، كنت أغمض عيني لبرهة ثم أفتحهما، وأنا أرقب جفاف حبات العرق على صدري، في محاولة للإمساك بتلك اللحظة بكل تفاصيلها وروائحها وأصواتها، بنباح الكلاب الذي يأتي من بعيد، وأصوات مبهمة تأتى من الخلف حيث المدافن، بأبواق عربات النقل الضخمة المارقة على الأسفلت، برجفة ورقة المانجو إثر نسمة مارة، بذرات التراب التي تتزلق من الجدار إلى ياقة قميصي منحدرة على ظهري، بمجموعة من الزلط البني والأبيض وجدته بجواري على الديوان، وكأن أحدهم جمعه خصيصًا من أجلي، بالغراب الذي حجل ـــ منذ قليل ـــ فوق تراب الشارع ثم طار عاليًا.. الاحتفاظ بكل ذلك، وحبسه بداخلي إلى الأبد.

سمعت حركة الولد بقربي، وضع صينية الشاي الألومنيوم بجواري وقال: "أحلى شاي". فتحت عيني، كان متجهًا نحو الدولاب الخشبي، مرَّت مجموعة من عساكر الجيش ببيادات متربة، وهم يمسحون بظهور أيديهم العرق من على جباههم، صاح الولد بحماس: "تفضلوا". التفتوا إليه في فضول، ثم واصلوا طريقهم دون أن يرد عليه أحد حتى ابتعدوا.

لمحت بينهم شخصًا يشبهني، نفس طولي وطريقتي في المشي ولوني الأسمر، له نفس رقبتي الطويلة ونحافتي، هو أيضًا التفت إليَّ وبدا مندهشًا من

وجودي، ربما كان يفكر في نفس السؤال: "ما الذي أتى بي إلى هنا؟". وللحظة تباطأت خطواته، خرج رفقاؤه من المشهد، توقفت الكاميرا عليه، وبحركة زووم بطيئة ملأ وجهه الشاشة، بانت اختلاجات الوجه الحائر بين الاندهاش والتردد. شعرت بأنه على وشك أن يتقدم نحوي، عيناه لم ترتفعا من على وجهي، وهو يتأملني باستغراب، كاد أن يفعلها، ولكن سرعان ما واصل سيره، ابتعدت الكاميرا فظهرت التفاصيل، مدّ خطواته ملتحقًا برفاقه، بدت الأمور تتضح، أعرف الولد ونصبة الشاي، والبنت التي تبيع الخضراوات، هذا الطريق مشيت فيه عشرات المرات من قبل، حتى إنني أعرف عدد الأسبلة، وأشجار المانجو المزروعة على جانبيه، وانحناءات الطريق.

اقترب الولد من الطريق، وقف على الحد الفاصل بين الظل والشمس، بص على البنت التي انشغلت في نَشِّ الذباب من على خضراواتها، قال: "أتعرفين.. لن أدخل الجيش!". عسست بيدي كوب الشاي، ثم أبعدتها، واصل الولد كلامه: "يشرف أبي على مدفن لرجل كبير وواصل، وعندما كلمه في الأمر، قال له: خلاص.. اعتبر الموضوع منتهيًا". لم تعره البنت انتباهًا، وواصلت حركتها الرتيبة في نشِّ الذباب.

كان أزيز الماء الساخن عاليًا، راقبت النار قليلاً وهى تلسع براد الشاي المسود، متتبعًا البخار الطالع من فوهته، متلاشيًا في صعوده نحو السماء. تأملت الولد، كان نحيلاً بدرجة لافتة للنظر، ومن خلال فتحة جلبابه لمحت عظام قفصه الصدري، ورقبة رفيعة تحمل تفاحة آدم صغيرة لا تكف عن الحركة.

بحرص جربت شرب رشفة صغيرة من الشاي الساخن. أمسك الولد بجردل صغير، ملأه بالكوز الصفيح من السبيل، انشغل بتغيير ماء الشيشة، ثم عاد وملأ الجردل مرة أخرى، غرف بيده ورش تراب الطريق، ثم رش بعض الماء على خضراوات البنت. خلال وجودي لم أرَ أحدًا يشترى منها شيئًا، ولم يمر في الطريق أحد سوى عساكر الجيش، لمن تبيع البنت إذن خضراواتها؟

أبطأ الولد من نار الوابور، فهدأ الأزيز، أطلق من فمه صفيرًا منغمًا باتجاه البنت، التي قامت من على فرشتها، تقدمت نحونا وهى تنفض مؤخرتها، خرجت من تحت الظل الثقيل، وتوقفت في منتصف الشارع تحت شمس حامية لم تأبه لها، غطاها نور الشمس فبدت خدودها في لون الورد، مدت أصابعها عند فخذيها، وسحبت جلبابها إلى أعلى قليلاً، فوق عظمتي الحوض، واتكأت على ساق واحدة، فبان ردفاها المشدودان، تحت ضغط الجلباب، قالت: "وبعدين معاك؟". شوح الولد بيده في الهواء، وأبعد عينيه إلى سبيل الماء، وهو يقول: "لم أفعل لك شيئًا"، أدارت وجهها نحوى، أطلقت ضحكة قصيرة وهى تقول: "أنت أصلاً ليس بك حيل لتفعل شيئًا".

أعطته ظهرها، وقفت قليلاً، ثم مشت عائدة إلى مكانها، ويداها حول خصرها، كان الردفان المتماسكان يهتزان في نعومة اهتزازًا خفيفًا. ثم تماهت في ظل المانجو، قعد الولد على طرف الديوان، وأمسك بمبسم الشيشة.

تأملت ظل شجرة المانجو الذي غطى بقعة من أرض الشارع، شملت البئر والسبيل وفرشة الخضراوات، ظل مكتمل لا تتخلله نقطة نور واحدة، بينما تناثرت بقع قليلة من الماء تحت شباك السبيل، أخذت تلعق فيها ثلاثة من كلاب السكك الكسولة، ثم رقدت فوق الأرض الرطبة.

مر جملان يحملان على ظهريهما شكائر أسمنت، يتبعهما رجل يرتدى جلبابًا قديمًا، ويمشى حافى القدمين، لم يبدُ عليه التأثر بسخونة الطريق، بل بدا وهو يشوح بعصاه الرفيعة في الهواء، وكأنه يترنم مع نفسه بأشياء غامضة، لم يلتفت نحوي، اتجه نحو السبيل، بصت عليه الكلاب ثم عادت إلى رقادها، شرب من كوز الماء ثم أسرع ليلحق بجمَليه.

أخذت ألعب في الزلط الملون الموجود بجواري على الديوان، بعضه كان في حجم البيضة والآخر في حجم حبات النبق، أخذت أنصت إلى صوت احتكاكه ببعضه، فكرت في الولد الذي يشبهني، كنت على يقين أنه أنا، عندما كنت مجندًا منذ بضع سنوات قليلة، وكأنني أعيش في حلم أو أتفرج على شريط سينما، لم يتغير شكلي ولم يزدد وزني كيلو جرامًا واحدًا، مررت في هذا الطريق كثيرًا، أعرف منحنياته والشوارع الصغيرة المتفرعة منه، والمؤدية إلى قلب مدينة الموتى، لقد شربت من السبيل ذات يوم، وقعدت على الديوان، وشربت الشاي، وربما بادلت البنت الكلام أو اشتريت منها بعض حبات الطماطم.

وضعت كوب الشاي على الصينية، أنزلت رجليَّ من على الديوان، لم يكن في ذهني شيئًا محددًا، كنت أوازن بين البقاء في المكان، أو الرحيل،

لكن إلى أين؟ كانت ضحكتها القصيرة ترن في أذني، ولاحظت أنها في مواجهتي من خلف الخضراوات، ومن مدة طويلة، لم ترفع عينيها من على وجهى. ثم أشاحت بوجهها عندما انطلق أذان الظهر من جامع قريب، تبعته أذانات أخرى من جوامع متباعدة.

(١٠)

وقفت قدام الجامع، كان الباب الكبير مغلقًا، بينما الباب الجانبي ذو الضلفة الواحدة مفتوحًا، أستند ثلاثة عجائز على حائط الجامع في المسافة الفاصلة بين البابين، انشغلوا في تناول "المضغة"، وهم يبصقون بين أحذيتهم القماشية، التي تبين من مقدماتها المثقوبة أصابع أقدامهم، وبين وقت وآخر يمسحون بأطراف أكمام جلابيبهم، شفاههم وذقونهم البيضاء النابتة. ظلوا لفترة، يتابعون بنتًا طلعت من الباب الجانبي للجامع، وهى تحمل فوق رأسها سطل ماء، وقليل من التراب والقش، لاصق بمؤخرتها الممتلئة، التي كانت تهتز مع خطواتها البطيئة. بعد أن ابتعدت قليلاً، قال أوسطهم: "هذا لا يصح"، رد الذي على شماله، والأقرب لي: "إنه جامع ربنا.. من يدخله لابد أن يكون طاهرًا"، تابع الأوسط: "طبعًا.. من المحتمل أن يكون عليها ظهرها مثلاً"، قال الأقرب لي: "نكلم الخادم"، رد الأوسط: "أنا أعرفه، لن يفعل شيئًا.. يكفيه جمع الفلوس والخيرات منهن"، واصل الأقرب لي: "طول الوقت مع الحريم في المقام.. وهذا لا يصح أيضًا". لم يكن الرجل الذي على يمين الأوسط، يشاركهم في الحوار، كان مشغولاً بردم بصاقه البني، بطرف عصًا رفيعة في يده،

ومتابعة الناس القلائل المارين من قدامه، مستمتعًا باستحلاب "المضغة"، المتكورة في جانب فمه، ثم رفع طرف ثوبه الأبيض لأعلى، وشد تكة السروال قرب عينيه، وأخذ يبحلق فيها، وهو يدعبس في طياتها بأصابعه.

صعدت ثلاثة سلالم حجرية متآكلة، ولجت من الباب الجانبي المفتوح، المؤدي للحمامات. فتحت إحدى الحنفيات على الآخر، انتظرت نزول الماء البارد، وشربت حتى اكتفيت. قدام حنفيات الوضوء، توجد مساحة صغيرة، أحيانًا يصلي فيها بعض الناس، كانت مفروشة بحصر الحلف، التي تآكلت أطرافها، واخضرت بفعل المياه المتقاطرة من أيديهم وأرجلهم. كان الباب الداخلي ذو الضلفة الواحدة، الذي يربط بين الحمامات وصحن الجامع مغلقًا. أربعة أبواب من خشب الأبلكاش، متراصة بجوار بعضها، ومدهونة حديثًا بلون أخضر قاتم، الأول هو الحمام المفضل لديَّ، كان أوسعهم، يوجد به حائط قصير بالداخل، يبدو أنهم كانوا يفكرون في إكماله للسقف، ثم تراجعوا عندما وجدوا أن الحائط الخارجي للجامع يكفي. دخلت، شممت روائح مكتومة تنبعث من حولي، ملأت طاجن الفخار المسنود تحت الحنفية مرتين، وصببته على الأرضية الأسمنتية، كان الماء يجرى، آخذًا معه الطين الذي خلفته الأحذية، كنت أفضل الاستحمام هنا، حمامات مقر اللواء لا تفرغ أبدًا، كما أنني لا آخذ راحتي فيها، ومن الفراغ الكائن بين الحائطين، أدخلت يدي، وسحبت قطعة خشب عريضة، خلعت هدومي، وضعتها مع مخلة البريد والبيادة فوق الحائط القصير، ووقفت على قطعة الخشب. كنت منتشيًا وسعيدًا، والماء يقطر من رأسي متدحرجًا إلى كتفي وظهري. قررت مع نفسي عدم

ركوب سيارة أجرة، وأن آخذ المسافة حتى مقر اللواء، سيرًا على الأقدام، تقريبًا ثلث ساعة، بعد أن أترك كتلة البيوت القليلة، والجامع خلف ظهري، حتى وصولي إلى اللواء آخر المقابر، الذي تسبقه أيضا كتلة أخرى من البيوت، وإن كانت أقل عددًا، طريق مترب، يفصل بينه وبين الخط الأسفلتي، صف من المدافن، تتخللها حدائق صغيرة للمانجو والنخيل، وتنتشر بها الكثير من القباب، والزوايا الصغيرة، والقليل من الأسبلة المبنية بالحجارة، كل سبيل له شباكان رفيعان، وكوزان من الصفيح، مربوطان بخيطين في مسمار، تجاوره بئر محاطة بسور قصير، وتعلوه بكرة خشبية.

طلعت من الحمام، وجدت الباب الداخلي مفتوحًا، أدخلت رأسي، كان الشباك العالي في آخر الجامع مفتوحًا، والمروحة التي فوقه شغالة، وبالقرب منه وجدت ثلاثة من رفاقي نائمين، أمسكت البيادة بيدي ودخلت. كانت حافة الشباك السفلية عريضة، ومساوية لأرضية الجامع، جلست بجواره وأنا أتطلع من خلال عيدان الحديد البنية.. توجد ثلاثة شبابيك فقط من هذا النوع، متراصة بجوار بعضها، على الحائط القبلي، وترتفع لأعلى إلى ما قبل السقف بقليل. كل شباك له أربع ضلف خشبية، الضلفتان العلويتان من المنتصف وحتى فوق، مغلقتان دائمًا. أما الضلفتان السفليتان، فهما مفتوحتان على مساحة صغيرة، خالية، تقع خلف المقام، الذي له باب منفصل خاص به، مزروعة فيها شجرة حناء، تلامس أفرعها حديد الشباك المشغول، وثلاث نخلات صغيرات، كان عنقود الحناء الأبيض، يفوح برائحة ذكية خفيفة، أتت نحلة ووقفت عليه، قلت في نفسي: "الله.. إنها الجنة". فكرت في البقاء مدة أطول، قمت بسرعة حتى

لا تتملكني الفكرة، خاصة أن موعد الظهر قد اقترب وسيمتلئ الجامع بالناس، مما يخدش حالة الوحدة التي كنت أنشدها بالقرب من شباك الجنة، لمحت على عنقود الحناء وأنا أهض، نحلة ثانية انضمت إلى أختها.

أيقظت رفاقي وخرجنا، كان العجائز الثلاثة، قاعدين في مكانهم، وهم يبصقون على التراب، والرجل الأوسط يقول: "زوجها ثور هائج.. أكيد لم تستطع الاستحمام صباحًا.. كيف تدخل جامع ربنا؟"، رد الذي على شماله: "الخادم يغض الطرف عنهن"، كان الرجل الثالث الذي لم يشاركهم في الحوار، قد مد ساقيه للأمام، مشغولاً بمراقبة المارة القلائل، وعندما مر من قدامهم الولد النحيل، وهو يرتدى جلباب كستور، مخططًا رأسيًّا بخطوط حمراء رفيعة، ومقطوعًا عند الكوعين، ضيق عينيه وبحلق فيه، ثم قالُ: "يا ولد.. أبوك خلّص الشغل؟"، توقف الولد، تأملهم قليلاً، ثم بص علينا - أنا ورفاقي - و لم يرد، واصل العجوز: "من مات اليوم؟"، رد الولد في ضيق: "الرجل الكبير يا جدي"، تساءل العجوز: "الرجل الكبير!!.. من؟". تجاهله الولد، شاط علبة سجائر فارغة، مكورة على الأرض، فزعت قطة كانت راقدة، وقفت متحفزة وهى ترقب الولد، الذي جرى وراء العلبة الفارغة، أخذ يصفر ويشوط فيها، حتى ابتعد عنهم متجهًا ناحية باب حديدي مغلق لأحد البيوت، تقشر لونه الأخضر في عدة مواضع، أدخل الولد يده من بين فرجات أسياخ الحديد، سحب الترباس من الداخل ودفع الباب بيده، ثم أغلقه خلفه واختفى في عتمة المدخل.

(١١)

وقفت خلف الأسياخ الحديدية لشباك حجرة النوم، بالأسفل رقدت قطة في بقعة من الظل وهى مغمضة العينين، نقلت التليفون من أذني اليمنى إلى اليسرى، بدت الشمس ساطعة وكأنها تحرق أرض الشارع، أخذت أبص على المارة، هم بدورهم كانوا يديرون وجوههم نحوى في استغراب ثم يواصلون طريقهم، وحبيبات من الرمل تطير من أمام أحذيتهم، فكرت أنني أبدو لهم من وراء حديد الشباك كمسجون يحسد الشارع، نهضت القطة فجأة وأخذت تلحس في بطنها.

كان الحوار الدائر عاديًّا، وعندما نطقت بجملة: "لا أعرف"، نطقتها بنبرة عادية ومحايدة، لا تحتمل أي تأويل، حينها قالت "سيرين":

- يجب أن تذهب إلى طبيب نفسي.

- لماذا يا "سيرين"؟

تكمل وكأنها لم تسمع تساؤلي:

- سوف يفيدك.. صدقني.

- لا أعانى من شيء يا "سيرين".

ترد بثقة:

- كلنا نعانى بشكل ما.
- لست كذلك.
- عنادك مشكلة.
- ... ...
- الأمر ليس عيبًا، من الممكن أن أدلك على طبيب.
- ... ...
- اخرج من القوقعة التي تحبس نفسك فيها..
- ... ...
- هل أنت مبسوط؟
- لا أعرف.
- زعلت؟
- لا.
- أنا ذهبت إلى طبيب نفسى.
- ... ...
- طبيب شاطر، سوف يساعدك.. أنا متأكدة.
- ... ...
- ومواعيده مضبوطة بالثانية.
- لا أعرف.
- هل تدرك أنك تجاوبني دائما بجملة: لا أعرف؟

أخذت أفكر في كلامها، جملة: "لا أعرف" لا تعنى تحديدا نفس المعنى يا "سيرين"، إنها تعنى: أنني أحتاج إلى وقت للتفكير، أو عندي إجابة لكنني

أعتقد أنها إجابة غير قاطعة، إجابة ليست نهائية، قد تحتمل معنى آخر، أو ربما هي تحتمل هذا المعنى، إنها الدقة في اختيار الكلمات يا "سيرين"، الكلمات مراوغة، ولا توجد إجابة نهائية لأي شيء، كل يوم أجد إجابة جديدة على أسئلتي المحيرة، كل يوم تمارس معي الكلمات لعبتها الشريرة، تدخلني إلى بيت جحا وتتركني هناك وحيدًا، بلا دليل أو مفتاح، اللغز عصي على الحل، أرى الحروف تتراقص أمام عيني، تتشكل منها كلمات وجمل، ثم تنفرط بسرعة مشكلة كلمات جديدة، وهكذا تستمر اللعبة إلى الأبد، العمر يضيع في الجري وراء الكلمات ومحاولة القبض عليها، إنها مهمة شاقة ومنهكة، وتبدو لي مستحيلة، أعيش في حالة من اللاطمأنينة، إنه العذاب بعينه.. "لا أعرف" ربما تعني "أعرف" يا "سيرين"..

واصلت كلامها:

- جرب يا "سيد لا أعرف".. لن تخسر شيئا.

التزمت الصمت التام، فكفت عن الكلام، وبدأت في التلاشي ببطء.

توقفت القطة عن اللحس وظلت واقفة في مكانها، فكرت في رسمها على حوائط الشقة، سأرسم قططًا كثيرة وبأوضاع مختلفة، أغلقت الشباك وشددت الستارة، فعم الظلام في المكان، استندت بظهري على الحائط، انتقلت سخونته إلى عمودي الفقري، تركت جسدي يهبط إلى الأسفل، مددت ساقي أمامي ثم أغمضت عيني. ساد هدوء لطيف، اختفت أقدام المارة من الشارع، تباطأت دقات قلبي حتى كادت تختفي.

وكنت أشعر بالراحة والظلام يحوطني من كل جانب..

(١٢)

مثل الأعمى كنت أتحرك بخفة في الظلام، أنتقل ما بين الصالة والمطبخ والحمام وحجرة النوم، بمرور الوقت تعلمت كيف أخطو دون الاصطدام بشيء، لدرجة أنني أعرف مكان الكرسي، قطعة الموكيت الصغيرة، الحجر الموجود في منتصف الصالة، سلك المروحة النقالي، كل ذلك أعرفه في الظلام وأتفاداه بسهولة، حتى وصل الأمر إلى إعدادي لكوب من الشاي دون الحاجة إلى إشعال نور المطبخ، فقط أضغط على زر الغلاية، منتظرا سماع صوت غليان الماء، أثناء ذلك أمد يدى نحو برطمان السكر، الموضوع فوق الثلاجة بعيدًا عن كتائب النمل، أما برطمانات الشاي والقرنفل والنعناع والقرفة والزنجبيل فمرصوصة على لوح خشبي في الجدار..

لا أعرف تحديدًا الأسباب التي جعلتني أستمتع بالعيش بهذه الطريقة، ربما كان لانقطاع الكهرباء المتكرر ذات صيف حار دور في ذلك، وربما لمرورى بمرحلة اكتئابية حادة، جعلتني غير راغب في الضغط على زر النور، وربما بدا الأمر مثل لعبة، أو لمحاولتي الدخول في رياضة روحية، عن طريق إظلام الحجرة والتركيز في جسدي الراقد على السرير، التركيز في

خفته وهشاشته، في محاولة للتحكم فيه واكتشاف قواه الداخلية، وحثه على الطيران، وقتها كان يراودني ذلك الحلم، أن أصير في خفة ريشة، وأن يتخفف جسدي من الأثقال التي يحملها بداخله، يفعلها أخيرًا، ويطفو في فضاء الحجرة.. ربما يكون أحد تلك الأسباب هو الذي عرفني على متعة العيش في الظلام، أو كل هذه الأسباب معًا، البحث عن السبب لم يعد يعنيني الآن، ما يعنيني هو وصولي إلى درجة احترافية عالية في ممارسة حياتي في الظلام، والاستمتاع بتلك الحياة، حتى إنه لم تراودني ـــ حينها ـــ أية رغبة في الضغط على زر النور.

بالطبع لم أكن أفعل ذلك كل ليلة، إنما حسب الأحوال والظروف، مرتين أو ثلاثة في الأسبوع، أحيانًا تكون لساعات، أو أستمر في الظلام حتى يغلبني النوم. في الحقيقة لم يكن ظلامًا كاملاً، كان هناك بصيص ضعيف وباهت من النور، يأتي من مدخل العمارة، ويتسرب من خلال شباك الحمام، لكنه لم يكن قويًّا بحيث أطلق عليه اسم نور، هو فقط كافيًا لجعل الرؤية في الحمام مختلفة عن بقية الشقة.

في الظلام تتحفز حواسي الأخرى للعمل، وينشط عقلي، هذا ما اكتشفته بمرور الوقت، أجرب الاعتماد عليها في ممارسة حياتي العادية، اللمس والسمع هما عيناي للرؤية في ظلام يحوطني، فبخلاف الأصوات التي تأتى من مدخل العمارة للعيال، ولعبهم بالكرة وصياحهم وبكائهم، ومناداة الأمهات عليهم من شبابيك الأدوار العليا، يأتي الإنصات إلى الأشياء كمتعة مثيرة، الإنصات إلى جارتين تقفان في المدخل، تبدو لهما شقتي المظلمة، والتي توحي بعدم وجود أحد بداخلها، مغرية لهما للوقوف بجوار

شباك الصالة، حيث أكون جالسًا من الناحية الأخرى، أستمع إلى شكواهما، أجلس في صمت متوحدًا بالكرسي.

هل أقول إن الكثير من أسرار العمارة صرت أعرفها، فتلك الوقفات العابرة قبل صعود السلالم، أو زيارة بعض الجيران القريبين، جعلتني أفهم صراخ جارتي "س" ساكنة الدور الرابع، الذي ينبعث بعد منتصف الليل، صراخ عال، يسرى في الليل حتى الشارع والعمارات المجاورة، كانت جارتي "س" قمحية اللون، في أواخر العشرينيات من عمرها، ذات جسد ممشوق، ومنتصب فى كبرياء، رأيتها في عصر أحد الأيام تقف في المدخل، وهى تتأمل شجرة "الفيكس"، وتفرك في يدها ورقة تناولتها من الفرع القريب منها، ثم أخذت تشمها بعمق ولذة، كانت ترتدي عباءة سوداء، منقوشًا على ظهرها نمر أصفر يتأهب للانقضاض، في معظم المرات التي شفتها فيها كانت ترتدي عباءة النمر، ويبين من أسفل العباءة ـــ حين تتحرك ـــ طرف قميص النوم، والذي كان يتغير في كل مرة ما بين اللون الوردي والأزرق السماوي، على أظافر يدها بقايا مانيكير أحمر، بدت وكأنها خارجة لتوها من حمام منعش، وجهها نضر، ويفوح من جسدها خفة وسعادة، حتى إنني خلت لوهلة أنها على وشك أن تبدأ في الغناء أو الرقص، ربما كانت تغنى في سرها، تلك الخفة التي أعرفها في أجساد البنات بمجرد النظر إليهن. لكن صراخها بالليل، والذى عادة ما تعقبه خبطات متسارعة لأيدي الجيران على باب شقتها، ثم تعلو همهمات الدعوات بالشفاء والاستعاذة من الشيطان الرجيم، يتبعه غلق أبواب الشقق وعودة الصمت. الظلام الذي أحيا فيه كشف لي سر تجنب

الجارات لها، وإقامتهن لحدود افتراضية في علاقتهن بها، إنه الخوف من حضورها الطاغي، والذي لا يخفى على أعينهن الراصدة، مع بعض من الغيرة على أزواجهن، الذين يمتلكون الاستعداد التام للعب بذيولهم في أي لحظة، التورط في علاقة حميمة معها، يعنى اقترابها بشكل خطير من عالمهن الخاص، الذي يحرصن دومًا على إحاطته بأسيجة حصينة، فاقتصرت العلاقة على مجرد سلام عابر، عند اللقاء على السلم مصادفة أو في مدخل العمارة، يعقبه سؤال عن الصحة والأحوال، قبل أن تقول الجارة: "عن إذنك". ثم تصعد السلم أو تدخل شقتها وتغلق الباب، جارتي "س" الشابة، الأرملة، التي تقطن وحدها بعد موت الزوج في حادث مروع بالمصنع الذى يعمل به، كانت تنطلق في الصراخ عندما ترى زوجها يتجول في الشقة كعادته، وهو يرتدى الفانلة الحمالات وبنطلون بيجاما بخطوط خضراء طولية، يبدأ يفتح الأدراج وباب الثلاجة والدولاب، يرفع المرتبة ويبعد المخدات، يفعل ذلك دون أن ينطق بكلمة واحدة أو يحدث صوتًا، منهمكًا في البحث عن شيء ما لا يعرفه أحد.

هناك عادات غريبة تربطني بثنائية النور والظلام، مثلاً أعشق جدًّا لحظات ما قبل الغروب، تحديدًا من بعد العصر حيث تخفت حدة الحرارة، وتنكسر سطوة الشمس، فتمتلئ الشوارع بالبنات والعشاق، وتبدو رغبة في الكلام مع أي أحد، أما لحظات الغروب نفسها، فهي مقبضة، ويخفت حماسي وأنا أرقب الظلام يجثم بسرعة، بعدها بقليل أستعيد حيويتي مرة أخرى. من العادات الغريبة أيضًا، أنني لا أنزل من بيتي بعد الغروب، إلا

في الحالات الضرورية والطارئة، فإذا كان عندي ميعاد بالليل فلابد من النزول بعد العصر بساعة مثلاً، لا أرغب في الذهاب إلى أي مكان بالليل.

عندما اقترب صوت القدمين، ركزت أكثر فيه، وقلت: "إنها السيدة التي تسكن في الدور الثاني"، تمشي على مهل وبخطوات ثقيلة، بينما يبدو أن صوت إحدى قدميها أكثر خفوتًا من القدم الأخرى، لم تكن عرجاء، بل كانت ممتلئة قليلاً، وعندما تمشى يميل جسمها إلى أحد الجانبين، بت أعرف الأشخاص من أصوات أقدامهم التي تعبر المدخل، أستطيع التمييز بين أقدام الطفل والشاب والرجل، بين أقدام المرأة وبنت البنوت، هناك أقدام تلمس الأرض بخفة وسرعة، بينما أقدام أخرى تكون ثقيلة الوطأة، محدثة صوتًا مكتومًا، بينما هناك أقدام يحدث كعب حذائها صوتا حادًا ورفيعًا، يبدو كمسمار يدق على بلاط المدخل، عادة السيدات يكن أبطأ من الرجال في المشي، الوحيدة التي لا أسمع صوت أقدامها، هي جارتي "س" التي تصرخ بالليل، حيث أفاجأ بصوتها في المدخل بلا مقدمات، وهى تتكلم في التليفون أو تضحك من قلبها، رغم أنها تلبس صندلاً أو حذاء له كعب قصير، تمامًا وكأنها تمشى في الهواء.

أحيانًا أتوق إلى الظلام في النهار، أصنعه على الفور، أسحب الستائر الثقيلة على الشبابيك، فتحل العتمة في المكان، عتمة تتيح لي رؤية الموجودات، عكس ظلام الليل الغامق الذى يبتلع كل شيء بداخله، عتمة النهار تميل لأن تكون بروفة من ظلمة الليل. من بعد العصر إلى ما بعد العشاء هو الوقت الذى تكثر فيه الحركة بمدخل العمارة، الرجال العائدون من الشغل في المصانع القريبة، يركنون دراجاتهم الهوائية في المدخل،

يسحبون أكياس سوداء من صندوق الدراجة ويصعدون سريعًا، عيال يلعبون الكرة أو الاستغماية محدثين جلبة لا تتوقف بسهولة، أما وقت الضحى فهو لسيدات العمارة يتحدثن وهن واقفات على السلم قدام أبواب شققهن أو من خلال الشبابيك المطلة على المدخل.

لماذا تطاردني دائمًا هذه القصة، رغم مرور العديد من السنوات على وقوعها، كثيرًا ما تزورني في أحلامي، وفى كل مرة تظهر تفصيلة جديدة كانت مختفية في الحلم السابق، فتكتمل أجزاء القصة، وأحيانًا تهل على تفكيري في اليقظة، في طفولتي كنت أخاف من الظلام، بالنسبة لي يمتلئ بكائنات غريبة وعفاريت وقتلى وكلاب وسَعالٍ وذئاب. كنت أقبض على يد البنت بقوة، بينما جدى وأبيها يمشيان أمامنا بعدة خطوات، أسرع في خطواتي، محاولاً اللحاق بهما، أو الاحتفاظ بمسافة معقولة بيني وبين جدى، مسافة تمنحني ما يكفيني من الإحساس بالأمان، كنا راجعين - أنا وجدي - بعد صلاة العشاء بفترة إلى البيت، ربما كنا في مولد أو عرس أو زيارة عائلية، قابلناها مع أبيها، طريقنا واحد، لذا مشينا - أنا والبنت - وراءهما حتى انتهى العمار والونس ودخلنا في الظلام، أحاطنا بسواده الحالك، بينما هسيس الحشرات يأتي من غيطان القصب عن يميننا وشمالنا. قبضت على يدها بقوة، وأنا لا أعرف على ماذا تخطو قدماى، أحيانًا كنت أشدها لتسرع في خطواتها، كان الظلام يحوطنا بعناية، من وقت لآخر ألمح بصيص السيجارة في يد جدي، البنت التي لم يبد الخوف على جسدها أو صوتها، وكانت تقاوم يدي التي تحاول جرها وخطواتي المسرعة، ظلت تتكلم بطلاقة وتطلق ضحكات صغيرة، ضحكات فرحة

وسعيدة، الطريق الترابي لا تبدو له نهاية، عندما حاذينا إحدى القناطر الصغيرة، انتبهت البنت وأخذت تحكى لي عن رجل تم قتله فوق القنطرة تمامًا، الفأس التي قتلته بترت أجزاء من جسده، كنت أرتجف وأنا أسمع صوتها الواثق يستمر في الحكي، وكنت خجلاً من خوفي، بينما البنت التي تصغرني تبدو مستغرقة في الحكي ومستمتعة، بلا نبرة خوف أو رعب، كنت أشك أنها تشعر بخوفي، فتتمادى في وصف تفاصيل حكايتها المخيفة.. الشريرة أجبرتني على أن أشدها بقسوة صرخت منها، وأنا أجرى نحو بصيص سيجارة يتحرك قدامى.

يبدو النور ثقيلاً وهو يشغل حيزًا من فضاء الحجرة، يصدمني أثناء تجوالي فأتحرك بصعوبة وجهد، يبدو كشبكة من الخيوط الرفيعة تلتف حول ساقي وبدني، وكلما تقطعت التفت حولي خيوط جديدة، يشاركني في المكان وهو يبث حرارة تصيبني بالتوتر والقلق، وأحيانًا زغللة العينين، دائمًا هناك أزيز يصدر من اللمبة، خافت وحاد، يصطدم بجلدي في عنف ، ويسكن تجاويف أذني الداخلية، يشبه صوت حشرة تمرح في حقل بالليل. في الوقت الذي يأتي فيه الظلام ناعمًا كملمس الحرير، أتحرك فيه بكل سهولة، أخترقه حجابًا وراء حجاب بلا عوائق، أشعر وكأن الفراغ من حولي ازداد اتساعًا، يصبح جسدي أكثر خفة، يلمسني برقة بينما أذوب في سكينة وسلام مع نفسي.

كالعادة أخذت أمشي في الظلام بسلاسة ويسر، خمنت أن الوقت تعدى منتصف الليل، سكتت الأصوات القادمة من الخارج، واختفت الأقدام الصاعدة إلى شقق العمارة، لم يتبق سوى نباح كلاب سرعان ما يصمت،

وطلقات نارية مكتومة، تتكرر على فترات وتأتى من البعيد، حينها علت صرخة جارتي "س" من الدور الرابع، سرت في الليل الساكن، رغم توقعي لها إلا أنها باغتتني، فارتجف قلبي بشدة، صرخات متتابعة وحادة تلمس الجلد كالسكين، نزلت الصرخات على السلالم في سرعة وارتباك، اخترقت مدخل العمارة إلى الشارع والعمارات المجاورة، والغريب في هذه المرة، أن أحدًا من الجيران لم يكلف نفسه، بأن يخبط - كالعادة - على باب شقتها.

(١٣)

الآن أتذكر، بدأ الأمر منذ عدة أسابيع مضت، بخبطات خفيفة على الشباك، سمعتها بوضوح، تكررت مرتين متعاقبتين، فصلت بينهما برهة من السكون، ثم صمتت الخبطات للأبد، بالضبط تشبه يد طفل، خافتة وحنونة وكأنها تربت على الخشب، لحظتها كنت راقدًا على السرير، غير قادر على النهوض أو الحركة، مشغولاً بالاستماع إلى دقات قلبي، قلت في سرى مبررًا: "أحد أطفال الجيران يلعب".

في البداية لم أنتبه للأمر إلا بعد فترة، في الأول ظننت أنني سبب المشكلة، ربما لنسياني الكثير أو لأفكاري المشوشة وعدم تركيزي فيما أفعل، والتي تجعلني لا أعرف تحديدًا المكان الذى وضعت فيه - آخر مرة - أقلامي..

في هذا اليوم تحديدًا، انتبهت إلى أنهم موجودون معي، وعادوا لممارسة ألعابهم الماكرة، لحظتها كنت أمسك بالقلم الأسود في يدي، مشغولا بالشخبطة في ورقة بيضاء، أخط كلمات وأحرفًا لا تؤدى إلى معنى واضح، وأرسم وجوهًا ضاحكة وأخرى عابسة، مجرد محاولات - يائسة - للقبض على فكرة شاردة، وحبسها على الورق. عندما لفتت انتباهي نسمة هواء تراقص ستارة الشباك، كان الرقص يتم بخفة وانسيابية، بدا

بطيئًا لعدة ثوان، ثم أخذ بعدها قماش الستارة في التحرك إلى أن ارتفع عن الأرض ليعود ثانية إلى مكانه، وكأن ثمة لحنًا موسيقيًا يرقصان عليه، يبدأ بإيقاع بطيء، سرعان ما يتسارع ليعود إلى البطء ثانية.

كنت أراقب الرقصة مبهورًا ومندهشًا، وعندما انتهت لم أجد القلم في يدى، و لم يكن حولي على الورقة أو المكتب، كنت ماأزال أشعر بملمسه الدافئ بين أصابعي، وكلمة توقفت عن إكمال باقي حروفها مرسومة على الورقة، تأملتها قليلاً، ثم قلبت في الأوراق وبعض الكتب دون جدوى، قمت من على الكرسي، نظرت بدقة إلى الأرض وتحت الكراسي دون أن أعثر عليه، وقفت حائرًا وأخذت أحك في رأسي، في محاولة لتذكر أي خيط يدلني عليه، دخلت المطبخ وفتحت الثلاجة، فكرت: ربما أكون قد نسيت ووضعته بداخلها عند إحضاري لزجاجة الماء، مع تيقني التام من أنني لم أتحرك من مكاني منذ فترة، وعلى أمل أن تتحقق المعجزة قلت بصوت هامس: "ربما". ثم دخلت الحمام تأملته قليلاً وخرجت، أخيرًا وجدته في الجيب الخلفي للبنطلون الجينز الذى كنت أرتديه بالأمس، والمعلق على باب الحمام من الخارج، من الذى أحضره إلى هنا؟

"لقد عادوا.. يبدو أنهم اشتاقوا إلي". قلت ذلك في نفسى وأنا أتذكرهم منذ عدة سنوات مضت، حيث كانوا يمارسون نفس ألعابهم، في إخفاء أقلامي في أماكن غير متوقعة، ثم تظهر فجأة. حينها قالت لي أمي عندما أخبرتها بالأمر: "إخوتك يلعبون معك.. لن يؤذوك ما دمت لم تؤذهم"، ثم أخذت تتمتم برقيات وأدعية تحفظها، بعدها داومت على تبخير حجرتي بشكل يومي لعدة أسابيع تالية.

"لماذا اختاروني أنا تحديدًا ليلعبوا معي؟"، فكرت أيامها كثيرًا في ذلك السؤال، دون الوصول إلى إجابة تريحني. عموما اعتدت على ألعابهم، وظللت أتعامل معها بروح مرحة، كأن أقول بصوت مسموع: "اظهر يا قلمي الأحمر"، فأجده يبرز برأسه من تحت المخدة، أو أن أقول: "قلمي الرصاص كان موجودًا داخل الكتاب، أين ذهب؟.. سأعضه إن لم يظهر الآن"، لألتفت فأجده على السرير. كثيرًا ما كنت أتخيلهم وهم سعداء بالفرجة على حيرتي، وبحثي العبثي عن أقلامي المختفية، ومفاجأتي بالقلم في مكان غير متوقع، هذا هو المشهد المفضل لديهم، والذى ينتظرون وقوعه بفارغ الصبر، أتخيلهم يقفون في جانب الحجرة، يدارون ابتساماتهم بأكف أيديهم، ويحاولون كتمان ضحكات تتسرب من أفواههم بخفوت، أنا أيضًا كنت أجاريهم في اللعبة، أبدى غضبًا مصطنعًا أثناء بحثى عن الأقلام المختفية، أتذمر منها بصوت عال، وأهددها بأشد أنواع العقاب إن هي كررت هذا الأمر ثانية.

في الحقيقة لم يفعل إخوتي شيئًا أكثر من ذلك، فلم يتمادوا في أمور مربكة أو شريرة، يمكن القول إنهم كانوا طيبين، وهو الأمر الذي جعلني أتعود على وجودهم، وأمارس حياتي بشكل طبيعي، دون قلق أو توتر.

عندما ظهروا لي في المرات الأولى، كنت أخمن أن عددهم ربما يكون ثلاثة أو أربعة، لا أعرف لماذا تخيلتهم مجموعة وليس فردًا واحدًا، أيضًا تخيلتهم إخوة أو أقارب كأن يكونوا أبناء عمومة مثلاً.

بالنسبة لهم وبمرور الأيام، لم يتوقف الأمر على الأقلام، بل وصل إلى كتبي، بدءوا يحركون كتبي من أماكنها التي اعتدت علي وضعها فيها،

مسببين لي الكثير من التعب في البحث والعثور عليها مرة ثانية. لعبهم مع الكتب اختلف عن الأقلام، كانت الكتب تختفى لمدة يومين أو ثلاثة، أحيانًا تمتد مدة الاختفاء إلى عدة أسابيع، في البداية تخوفت من أن يتطور الأمر إلى أشياء أبعد من الكتب، كأن يقطنوا معي في الحجرة مثلاً بحجة أنها تعجبهم ويرتاحون لها، أو يجردوني من كل ما أملك من نقود وملابس وأي شيء آخر يخصني، لكن الأمر توقف عند الكتب فقط.

ولتخفيف الأمر أطلقت على أخذهم للكتب اسم: "استعارة"، مع الوقت اكتشفت أن دواوين الشعر هي الكتب المفضلة لهم، تأتى بعدها الروايات ومجلات الأطفال، عندما بدأت مجلدات ميكي وكابتن سمير وماجد وتان تان في الاختفاء، أدركت أن بينهم طفلاً، أو لهم إخوة صغارًا يحبون أيضًا القراءة، أما الأعمال الكاملة لـــ "أمل دنقل"، ذات القطع المتوسط والغلاف المقوى، تلك النسخة التي كسبتها في مسابقة للشعر بالمدرسة، فكانت كتابهم المفضل، حيث استعاروها العديد من المرات ولمدد تفاوتت في طولها، حتى إنني نادرًا ما كنت أجدها في مكتبتي، مازلت حتى الآن أتذكر تلك النسخة، بغلافها الأحمر وصورة "أمل" تحتل الغلاف الأمامي، والعديد من أشرطة اللاصق الشفاف، تحيط بكعبها الذى تفسخ من كثرة القراءة والتداول.

لقد عاد إخوتي، لم تغيرهم السنوات أو البلاد، يمارسون ألعابهم بلا ملل، أتخيلهم وهم يكتمون ضحكاتهم أثناء مراقبتهم لي، وأنا أبحث - كالعادة - عن أقلامي في الحمام والثلاجة وأمام باب الشقة، أو يدقون على الشباك بخبطات خفيفة منغمة، كإعلان مهذب عن حضورهم. كلمة

واحدة نطقتها عندما وجدت قلمي: "مرحبًا"، وفكرت مع نفسى أنهم "ونس"، جاءوا في وقتهم المناسب وسيملئون على البيت، الذى فعلته بعد ذلك، أنني قمت بأخذهم في جولة للفرجة على الشقة، وعندما وصلت إلى الحجر القابع في منتصف الصالة، قلت: "أعرفكم بالسيد حجر.. أرجوكم لا تزعجوه بألعابكم، فهو سريع الغضب".

رغم العشرة الطويلة التي عشناها معًا، إلا أنني لم أشاهدهم في حياتي، و لم أسمع أصواتهم، حتى أسماؤهم لا أعرفها، مرة وأنا أبحث كالعادة عن قلمي الأسود، كنت في السنة النهائية بالثانوية، قلت بحدة: "طيب.. أخبروني بأسمائكم"، كنت على وشك الدخول في مرحلة الغضب، لكنني لم أتلق إجابة، بعدها بأيام كتبت على ورقة علقتها على الحائط فوق مكتبي: "اذكروا أسماءكم أو ارحلوا". لم أقصد كلمة الرحيل بمعناها الحرفي، كنت أهددهم فقط، لكنهم فعلوها ورحلوا، ولعدة أسابيع تالية لم يظهروا، فعلقت ورقة أخرى مكتوبًا فيها كلمتان فقط: "أفتقدكم.. عودوا"، في اليوم التالي كانوا يمارسون ألعابهم كالعادة.

ما أعرفه أنهم شغوفون بالأقلام، تحديدًا الأقلام الملونة هي التي تثير شهيتهم، لذا وكنوع من الترحيب بقدومهم بعد غيبة، أخرجت لهم كل أقلامي الملونة، بالإضافة إلى دواوين الشعر الموجودة عندي، وضعتها في صفين بجوار الحجر في منتصف الصالة، وفى الأعلى وضعت نسخة جديدة من الأعمال الكاملة لـــ "أمل دنقل"، وبعض الكتب التي تناولت أعماله بالدراسة والنقد، وأنا أقول: "ربما يحتاجونها".

"من الذي دلهم على عنواني؟"، سؤال آخر يتعلق بإخوتي، فكرت فيه للحظات، ثم بدا لي أنه سؤال عبثي، وأنا أفكر: إنهم لا يحتاجون لأحد ليدلهم، بالتأكيد هم يعرفون كل شيء، ولن يكون العثور على عنواني معضلة بالنسبة لهم. لكن السؤال الأهم هو: لماذا اختفوا تلك المدة الطويلة؟ عشر سنوات كاملة، حتى إنني اعتقدت عندما كانوا يأتون على بالي، أن وجودهم هو من قبيل أوهام مرحلة المراهقة.

تذكرت أنه بعد شهور من سفري للدراسة الجامعية، وفي أول زيارة لي، أخبرتني أمي أن أحدًا كان ينادى على اسمي بعد صلاة العشاء، كانوا يعتقدون أنه أحد أصدقائي، أو أحد الجيران يريد شيئًا ما، وعندما يخرج جدي ليرى المنادى لا يجد أحدًا أمام الباب، وأن هذا الأمر تكرر لعدة أيام بعد سفري، حتى اختفى تمامًا، في آخر مرة لم يكتفوا بالنداء، بل خبطوا على الباب، وعندما فتح جدى الباب لم يجد أحدًا كالعادة، ووجد على العتبة نسخة الأعمال الكاملة لـــ "أمل دنقل"، التي استعاروها قبل سفري بأيام. إذن كانوا هم، بحثوا عني وأعادوا كتابي، لُمت نفسي لأنني لم أترك ورقة على الحائط، تخبرهم بسفري للدراسة، وفكرت: ربما غضبوا وأخذوا على خاطرهم مني، ولكنهم وبطريقة ما عثروا على عنواني.

لم أخبر أحدًا من أصدقائي بأي شيء عن موضوع عودة إخوتي، خصوصًا صديقتي الأولى "س" وصديقتي الثانية "س"، ليس من أجل تلافي سخريتهم المتوقعة، أو لدخولهم في مناقشات وجدال عبثي، عن حقيقة وجود إخوتي أصلاً، أو حتى لا أكرر موضوع الحجر، والذى تعاملوا معه بشكل هزلي، طبعًا كل هذه الأسباب كانت موضوعة في الاعتبار، السبب الرئيسي هو

أنني اعتبرت إخوتي أمرًا شخصيًّا، يخصني وحدي، وليس لطرف آخر أحقية الاطلاع عليه، وكأي أمر شخصي جدًّا، لفرد – مثلي – محافظ، محسوب على الطبقة الوسطى، فهو يفضل الاحتفاظ به لنفسه، وعدم اطلاع الآخرين عليه حتى لو كانوا من المقربين، لذا ظل إخوتي هم سري الخاص، المحرم على أي أحد الاقتراب منه، كنت أفكر بأنه من الأفضل لأي شخص، أن تكون له بعض الأسرار الخاصة به، ليس المهم قيمتها أو تحديد درجة سريتها، المهم أن يشعر الإنسان بأنه يمتلك سرًّا لا يعرفه أحد، متعة مقاومة النفس – الأمارة بالسوء – التي تراوده دومًا، وتزين له السبل لإفشاء السر، بالضبط وكأنك تكتم النشوة بداخلك، لتستمتع بها لأقصى وقت ممكن، قبل الوصول إلى رعشة الشبق.

بالإضافة إلى موضوع إخوتي، هناك أيضًا بعض الأشياء التي تحدث لي، أو تختارني خصيصًا من بين الخلق، لكي تعلن عن وجودها، أجهل السر وراء اختيارها ذلك، لكنها دائمًا ما تفعلها، لم أبح بأمرها لأي أحد، وفضلت الاحتفاظ بها سرًّا من أسراري المكنونة، مثلاً: شعوري الدائم بأن هناك أشياء تحدث لي، أشياء يمكن وصفها بالمعجزة، فالفتاة التي تسكن وجه القمر ولوحت لي بيدها ذات ليل في الحديقة، لم يكن في الأمر خداعًا بصريًّا، أنا متأكد من ذلك، و لم أكن نائمًا وقتها، بالعكس كنت في أشد لحظات وعيي، كنت في حالة من النشوة والمتعة لا يمكن وصفهما، أمتلك تلك الطاقة التي تسرى في عروق الجسد، فتجعلني قادرًا على فعل أمور لا يمكن تخيلها.

دعنا من القمر وفتاته، فماذا إذن عن النمر الذي يقبع على ظهر جارتى "س"، شفته يرمقني بعينيه الغاضبتين، حرك رأسه نحوى في غضب ثم فتح فكيه، وكان يتأهب للانقضاض، تقريبًا كاد يفعلها ويقفز من على ظهرها باتجاهي، كل ما جنيته أن عيني سرحت لبرهة وراء السيدة، التي نزلت من السلم بجسد في لون وطعم الخمر، ورمقتني بعينيها السوداوين وهى في طريقها إلى الشارع، سحرتني العينان ولم يكن الأمر بإرادتي، ربما لولا ابتعادي بسرعة واختفائي في شقتي، لكان قد تمكن النمر من التهامي، أما الكلاب التي قطعت الطريق المار بجوار الحديقة، ومنعت الناس من المرور إلى بيوتهم، وأجبرتهم بلا رحمة على العودة، واتخاذ طريق آخر أكثر طولاً، فقد توقفت عن النباح عندما شافتنى قادمًا من أول الطريق، ابتعدت قليلاً إلى جانبي السور، وفتحت لي ممرًّا آمنا، كل ما فعلته أنني قلت: "أريد الذهاب إلى بيتي.. هل تسمحن لي بالمرور"، ظلت الكلاب ساكنة في وقفتها، وهى تشم الأرض أو ترمقني بنظرات خالية من العداء، وأنا أتقدم في هدوء مواصلاً طريقي، وأتمتم في سرى بآية الكرسي وأوائل سورة يس.. في النهاية توصلت إلى قناعة أراحتني، سواء كنت شخصًا طبيعيًّا أو مختلفًا عن الآخرين، فالأمران عندي سيان.

في صباح اليوم التالي لمجيء إخوتي، مارست طقوسي المعتادة التي أمارسها عند كل خروج، تأكدت من وجود المحفظة بحقيبتي وبها نقود كافية، مفاتيح الشقة في قبضة يدي، تناولت كتابًا لأقرأه في المترو، وضعت كيس

المناديل الورقية في جيبي، التليفون المحمول، وفي طريقي للخروج متجها نحو الباب، لاحظت اختفاء الأعمال الكاملة لـــ "أمل دنقل".

في الخارج وعلى غير العادة في مثل هذا الوقت من السنة، كانت غيمة مارة، غيمة كبيرة وسوداء، وقريبة من الأرض، لدرجة ظننت أنني لو قفزت إلى الأعلى لأمسكت بقطعة منها، ألقت الغيمة ظلاً ثقيلاً، فرش المدخل وأشجار "الفيكس"، وامتد الظل ليغطى جزءًا من الشارع.

(١٤)

لما غطاني ظل الشجرة المفروش على الرصيف، توقفت عن المشي، استنشقت الظل ثم خبطت حذائي على البلاط المتسخ خبطات خفيفة، ثم واصلت طريقي إلى المقهى، عندما دخلت لم يكن هناك أحد، لاحظت أن الأرضية مكنوسة ورخام المناضد ممسوح بالماء منذ فترة قريبة، ما زالت قطرات من الماء باقية في الجوانب، اتجهت نحو مكاني المفضل، سمعت وشيش خافت لحنفية الماء بالداخل، فخمنت أن "س" يغسل الفناجين والأكواب استعدادًا للعمل.

هدوء وسكينة يخيمان على المقهى نادرًا ما أصادفهما، دائمًا يكون المكان معبأ بأصوات الرواد وضحكاتهم، ومناقشاتهم التي لا تصل إلى نقطة نهاية، بينما دخان السجائر يطفو كسحابات صغيرة فوق الرؤوس قبل أن يتبدد وهو يقترب من السقف. الشوارع أيضًا كانت تعيش حالة من الهدوء غير المألوف، عربات قليلة تمر ومارة قليلون يمشون على مهل، بدا لي يومًا غريبًا وغير متسق مع الأيام التي اعتدنا عليها، استعدت في ذاكرتي تاريخ اليوم باحثًا عن مناسبة وطنية ما، أو يوم إجازة لأي سبب، لم تسعفني معلوماتي بشيء محدد.

جلست على الكرسي بجوار الدرابزين الخشبي الفاصل بيني وبين الرصيف، مكان مناسب لرؤية الشارع بشكل جيد، أخرجت من حقيبتي علبة المناديل وتليفوني المحمول والقلم الجاف، رصصتها بجوار بعضها على المنضدة، ثم أخرجت الجريدة وأخذت أقرأ بتمعن في العناوين.

أتى "س" بالقهوة، قال: "صباح الخير"، رددت: "صباح الخير".

وضع الفنجان على المنضدة وبجواره كوب الماء البارد، تعود أن يحضر لي قهوتي دون أن أطلبها، فما إن يلمحني موجودًا بالمقهى حتى يأتي بها، لمست بإصبعي سطح الفنجان الخارجي، ثم عدلت وضعه فوق الطبق، شممت رائحة القهوة، أخذت نفسًا عميقًا، أحب رائحة القهوة، ودائمًا ما أعشق المرور أمام محال البن، في أوقات كثيرة أشم رائحتها في شارع ما، فأقول في نفسي يوجد محل بُن قريب من هنا، لأجدني بعدها بخطوات مارًّا من أمامه.

للقهوة طقوس خاصة، أمسك الفنجان بيدي، أقربه على مهل من أنفي، وآخذ نفسًا عميقًا، أتشمم رائحة البن، ثم أضعه مرة ثانية فوق الطبق، أشرب قليلاً من الماء، ثم آخذ رشفة صغيرة من القهوة، أستمتع بطعمها ودخولها في خلايا جسدي، الرشفة الأولى تعقبها فترة من الوقت قبل أن آخذ الرشفة الثانية، إنها تهيئ الجسد وتجعله مستعدًّا لتقبل المتعة الآتية بعد قليل.

عندما نظرت وجدتها على المنضدة المواجهة، كل ما حدث أنني لم أفعل شيئًا، لم أبتسم، أو أتقلقل في مكاني، لم أعد إلى قراءة الجريدة أو أشرب

قهوتي، ظللت هكذا ساكتًا ومبهورًا لفترة، بعدها قلت في نفسي: "حلوة"، ثم: "فاتنة"، ثم: "قاتلة"، أتبعتها بـــ: "هل أعيش في حلم؟"، لم يكن حلمًا، أعي هذا جيدًا، الأمر ببساطة أنني أتواجد بصحبتها في مكان لا يوجد به أحد سوانا، وبلا خجل لا تمل من النظر إليَّ بعينين ساحرتين.

الصدمة هي الكلمة المناسبة لوصف حالتي عند رؤيتي لها في مواجهتي، صدمة جعلتني أنسى اللغة والكلمات والحروف، صار الأمر شاقًّا ومنهكًا بشكل لم أتخيله، وأنا أبحث في ذاكرتي عن كلمة أو جملة دون جدوى، صدمة من يعبر شريط السكة الحديد، وفجأة يجد القطار قادمًا باتجاهه، هناك ثوان قليلة تفرق بين الموت والحياة، ثوان كافية لأن يأخذ بقدمه خطوة تبعده عن القضبان، أو يظل هكذا ثابتًا في مكانه، وهو على يقين أنه بالفعل قد أخذ تلك الخطوة، هذا بالضبط ما حدث لي، جالسًا على القضبان بينما القطار في مواجهتي يطلق صفيرًا مرحًا.

فكرت متى دخلت؟ ومتى جاءت قهوتها؟ لم أشعر بشيء من ذلك، أإلى هذه الدرجة كنت منهمكًا في قراءة الجريدة؟! اختفى "س" بالداخل، اختفى رواد المقهى الذين يحضرون في ذلك الوقت، اختفى المارة من على الرصيف، والباعة المتجولون، والمتسولون، وماسحو الأحذية، وأبواق السيارات، والروائح التي تتسكع بكسل وبلا هدى، الشارع نفسه بدا لي وكأنه اختفى هو أيضًا، فقط أنا وهي وحدنا في المقهى، متواجهان، أمام كل منا فنجان قهوة، ما يفصل بيننا مسافة قصيرة، من الممكن أن أقطعها في خطوة واحدة، أو في سنة كاملة، انتابني إحساس قوى بأن ساقيَّ قد اختفتا من جسدي.

كانت ماتزال تنظر نحوى بجرأة.. تمنيت مجيء أحد للمقهى، أي شخص حتى لو كان أحد مصاصي الدماء، أن يظهر "س" مثلاً من مخبئه وهو يحضر لي كوب ماء كعادته، أو أن تختفى هي بنفس الطريقة التي جاءت بها، حاولت الانشغال بمعاودة قراءة الجريدة، عدت إلى التقليب في الصفحات، لم أستطع التركيز في سطر واحد، كنت أشعر بعينيها الجميلتين مصوبتين نحوى، العينان دائمًا تشدانى إليها بسحرهما الغامض، خصوصًا تلك التي تنبض بالحياة، "العينان هما بوابتا الجسد" من قال تلك الجملة؟ حاولت التذكر فلم أستطع، هل قرأتها في كتاب أم سمعتها من أحد؟ ربما أنا من قالها؟ أعجبتني الجملة فكررتها في سرى عدة مرات، ثم تشجعت وتناولت آخر رشفة من الفنجان.

ماذا لو كانت ملاك الموت جاء لمقابلتي؟ مر هذا الخاطر بداخلي كومضة، لا شيء يمنع الموت من زيارتى، ليس العجائز فقط هم من يفضل المرور عليهم دائمًا، الصغار أيضًا يموتون، إنهم حصاد الحروب وحوادث الطرق والانتحار والأوبئة، مهما تختلف أسباب الموت فالنتيجة واحدة، إنه يمارس عمله بإتقان وجدية، وهذا ما يمنحه تلك المهابة التى تجتاح القلب عند تذكره أو رؤيته.

فكرت أنها تبدو مختلفة عن البنات العاديات، اللواتي يبدون أكثر خجلاً وأكثر تحفظًا، خصوصًا مع الذين تقابلهم لأول مرة، لكنها ـــ أمامي ـــ تبدو مختلفة، تمتلك جرأة غريبة، وهذا هو الفارق الواضح الذي يميز الملاك عن الآخرين، أي ملاك، الملاك دائمًا مختلف، لا يشبه أبدًا أي كائن دنيوي..

أظنني لمحت ابتسامة على شفتيها، إذن هي مرحبة بأية بادرة، ولن تمانع في التعارف وغير خائفة مني، واصلت التفكير: بأن الملائكة هم من يمتلكون تلك الشجاعة ولا يهابون أحدًا، بداخلهم يعرفون أنهم يمتلكون قدرات خاصة، فيبدون أكثر ثقة وقوة في مواجهة العالم، لا يعرفون التراجع أو التراخي، لقد أتوا من أجل مهمة ما وعليهم تحقيقها، النتيجة معروفة سلفًا. طيب.. فلأفترض أنها ليست ملاك الموت، وأنها منحة إلهية مبهجة، تأتي قبل وصول ملك الموت، شيء يشبه مكافأة نهاية الخدمة، يبث في قلبي اطمئنانًا وسرورًا، فأخرج من الدنيا وأنا قابض على لحظة من السعادة. ومن الممكن أن تكون مجرد سراب أو خيال، كالذي يظهر للتائهين والظامئين قبل الدخول في مرحلة الغيبوبة النهائية، أو ربما تكون من إخوتي الذين يلعبون معي، قرروا أخيرًا الظهور، فاختاروها هي من بينهم لتكون أول واحدة أراها، إنها مفاجأتهم لي، بهذا الشكل لن أنساها أو أنساهم إلى الأبد، هل يعني هذا أنني الوحيد الذي يراها، أم أن الناس الآخرين من الممكن أن يروها أيضًا؟ لو جاء أحد الآن سوف أسأله عن ذلك، سأقترب منه وأقول بصوت هامس: "لو سمحت.. أترى تلك الفتاة؟"، هل بدأت أهذي بأي كلام؟ قلت لنفسي بحسم: "إنها ليست وهمًا ولا خيالاً.. إنها حقيقية من لحم ودم مثلي". بدت وكأنها تحب الحياة، كان هذا واضحًا، كل جزء من جسدها يعلن عن هذا الحب، نضارة الوجه، لمعة العينين، فستانها القطني المرقش بزهور صغيرة، جسدها المجرم المعجون بالحيوية، أخرجت منديلاً من الكيس، ومسحت العرق من على جبهتي.

فكرت ماذا يحدث لو وقفتُ، وقطعتُ تلك الخطوة بثبات، ثم قلت بصوت هادئ: "مرحبًا بك، هل تقبلين دعوتي على فنجان آخر من القهوة؟". الأمر ليس صعبًا أو مستحيلاً، أتخيل ردة فعلها، ربما تبتسم قبل أن ترد بصوت أكثر هدوءًا: "تفضل"، ربما تكتفي بإيماءة من رأسها، ويد ممدودة باتجاه الكرسي المقابل بما يعني الموافقة، فأجلس ثم يجر الكلام بعضه. ربما ترد عليَّ بصوت قاطع: "أنتظر أحدًا"، أو لا ترد من الأساس، المهم يكفي أنني حاولت، ولو كان الرد بالرفض فلا من شاف ولا من درى، أعود إلى مكاني كفارس خسر معركة و لم يخسر الحرب.

ازداد العرق، أحسست به غزيرًا تحت إبطي وعلى صدري، دق قلبي دقات متتالية مسموعة، أعرف تلك الدقات جيدًا، متى تسرب الخوف وسكن قلبي؟ أخذت أتمتم بداخلي: "أنا بخير.. أنا بخير"، لكن الدقات تواصلت، أدرت حوارًا مع نفسي في محاولة لتركيز انتباهي على شيء آخر:

- كيف الحال؟

- تمام.

- وحال الأولاد؟

- لا يوجد أولاد.

- والأسرة؟

- لا توجد لدى أسرة.

- إذن.. أنت تعيش لوحدك؟

- نعم.

- مبسوط ؟
- يعني.
- ماذا تقصد بـــ يعني؟
- نص ونص.
- يعني تعيس؟
- ليس لهذه الدرجة.
- ماذا تفعل في الحياة؟
- لا شيء.
- ماذا تريد؟
- لا شيء.
- تريد الموت؟
- لا أعرف.
- تريد الحياة؟
- لا أعرف.
- ما الذي تعرفه أيها السيد: "لا أعرف" ؟

توقفت عن الحوار..

يبدو جمالها ساحقًا، لا أقدر على تحمله، يبسط سطوته بقوة وطغيان، جارفًا كل شيء في طريقه، تاركًا في النفس آثارًا لا تمحى، كيف يفعل الجمال كل ذلك بتلك السهولة؟ دقات قلبي مستمرة، مررت بعيني على السقف والجدران وحذائي، أفرغت المناديل من الكيس، العرق يتر من جسدي بلا توقف، بدأت أشعر بالبرد، انتفض بدني، انكمشت على

نفسي، وآخر شيء كنت أردده بشكل متواصل، قبل أن أغيب عن الوعي: "دثروني.. دثروني"، بينما قطط سوداء وبيضاء وأخريات مرقشات، تسبح في الفراغ من حولي وتتسرب على مهل إلى رأسي.

(١٥)

"القطط تملأ رأسي.. وعددها يتزايد مع الوقت"، هكذا فكرت، ثم قررت.

اشتريت الأدوات اللازمة للعمل، عدة فرش رفيعة وعلبة طلاء، ارتديت تى شيرت وبنطلون جينز قديمين، ثم اخترت من على الكمبيوتر، الموسيقى التصويرية لفيلم "Talk to Her"*، ضبطت درجة الصوت التي أفضلها، وقفت بجوار الحجر، قلت: "أنت تحب هذه الموسيقى.. ابسط يا عم"، وكنت على يقين أنه يعيش إحدى اللحظات السعيدة في حياته.

أنزلت اللوحات المعلقة، وتركت المسامير في مكانها، غلفتها بورق جرائد، وأحكمت الغلاف بشريط لاصق ثم قمت بركنها بجوار صف الكتب. في منتصف حائط الصالة رسمت خطًا رفيعًا، بالكاد يُرى، قسم الحائط إلى نصفين متساويين، قلت في سرى: "خط الاستواء"، تأملته من بعيد وحددت نقطة البداية، وعلى وقع الموسيقى بدأت في رسم القطط.

---

*فيلم إنتاج أسبان سنة ٢٠٠٢ – تأليف وإخراج: Pedro Almodóvar ــ موسيقى: Alberto Iglesias

بعد ثلاث قطط اكتملت على الحائط، أتى من أحد الأدوار العليا بكاء رضيع، استمر بلا انقطاع، كان يبكى بحرقة، بكاء يبطن بداخله وجعًا لا يحتمل، هل الحر هو السبب أم المرض أم الجوع؟ خمنت أن وجهه الآن محمر ومغسول بالدموع. "لن يفلح أحد في إيقافه"، هكذا فكرت، وواصلت: "سيتوقف عندما يرغب هو في ذلك أو ينهكه التعب"، علا صياح الأم بالتذمر، بينما كان صوت البكاء يبتعد قليلاً لوهلة، ثم يعود عاليًا مرة ثانية، يبدو أن الأم كانت تتجول به داخل شقتها. توقفت عن الرسم، قعدت على البلاط بجانب الحجر، مررت يدى عليه، استراحة قصيرة أعود بعدها لمواصلة العمل، فكرة صغيرة انبثقت داخل دماغى، سيطرت بسرعة وقوة على تفكيرى، مقررة بحسم: لن تكمل الرسم إلا بعد أن يتوقف الرضيع عن البكاء.

لا أعرف كيف أبكى، في بعض الأحيان كنت أعتبر ذلك مشكلة مؤرقة، ربما يعد البعض عدم معرفة البكاء شيئًا هينًا وبسيطًا، لكن الأمر أكثر تعقيدًا مما يعتقد أي أحد. كل البشر يمتلكون دموعًا، وكل البشر لديهم القدرة على ذرفها، البعض يفعلها بيسر يثير الدهشة، وكأنه يقول لجاره: "صباح الفل". والبعض يعانى حتى يسقط دمعة، ولكنه في النهاية يفعلها، فتبزغ أول دمعة، تلك التي ما إن تخرج حتى تجر وراءها بقية الدموع المربوطة بخيط خفي، تتدفق وهى تلسع الخدين، هناك آخرون يمكن القول إنهم يكابدون من أجل البكاء، أحيانًا يبتهلون في سرهم: "دمعة يا رب.. دمعة واحدة لها مفعول السحر"، هؤلاء بكوا مرات قليلة في حياتهم، مرات يتذكرون أسبابها جيدًا وكأنها حدثت بالأمس، لحظة فقد أحد

الأحبة، فعلوها عند إلقاء نظرة الوداع الأخيرة، أو عندما وجدوا أنفسهم غارقين في حضن أليف، ويد تربت بحنان على ظهورهم، أو في لحظة غامضة في سرادق العزاء، في بعض الأحيان يجترون تلك الذكرى بحنين يعصر القلب، وهم يستعيدون بلذة طعم الدموع.

هناك قلة لا تعرف كيف تبكى، إنها قبيلتي التي أنتمى إليها.

صديقتي الأولى "س"، تمارس البكاء كل يوم، يكفى أن تتفرج على مشهد رومانسي في التليفزيون، حتى يفتح باب الدموع على مصراعيه، الرومانسية هي الحافز رقم واحد في الأسباب التي تدفعها إلى البكاء، بعدها وعلى مسافة كبيرة تأتى الأسباب الأخرى، التي يجمعها أنها تقليدية، مثل: الرسوب في مادة أيام الدراسة، أو عقب مشاجراتها الموسمية مع أمها، أو عندما يلعب أخوها دور الأب القاسى، فى محاولات ناجحة لابتزازها ماديًا. أما صديقتي الثانية "س"، فتعد الحالات الإنسانية المؤثرة هي المحفز الأعظم لها على البكاء، لذا توقفت منذ فترة عن ارتياد المستشفيات، أو زيارة أقاربها المرضى، مما وضعها في مواقف اجتماعية محرجة، بالإضافة إلى أنها تغمض عينيها أو تدير وجهها إلى الناحية الأخرى، عندما تلمح المتسولين ذوى الحالات الصعبة، حتى لا تنخرط في نوبة بكاء مريرة، لن تستطيع التخلص منها بسهولة.

بداخلي تكمن الرغبة في البكاء، لكن كيف أفعل ذلك؟ هذا هو السؤال، لم يعلمني أحد كيف أبكى، لا توجد إرشادات في الكتب، أو أماكن تمنح دورات متخصصة في تنمية القدرات الذاتية على تعلم البكاء وبين الفينة والأخرى تنشر إعلانًا في الصحف، يقول: "هل ترغب في البكاء.. نحن

سنساعدك.. انضم إلينا.. بادر بحجز مكانك.. العدد محدود". الوسائل التقليدية التي اعتقدت أنها ربما تفلح معي، فشلت تمامًا، فلا تقطيع البصل أفاد، ولا القطرات استطاعت أن تذرف ولو حتى نصف دمعة. أخيرًا توقف الرضيع عن البكاء، هل تبكى القطط؟ لا أعرف، سأبحث في هذا الموضوع على الإنترنت، تساءلت: أيهما أفضل رسمها بدموع أم من غير دموع؟ ربما أرسم واحدة منهن وهى تذرف دمعة، سيكون ذلك مؤثرًا.

قطط صغيرة بحجم راحة اليد، تقف وراء بعضها في طابور طويل، كلها سوداء اللون، وتحتها وفوقها رسمت قططًا أكبر منها في الحجم، تتخذ أوضاعًا مختلفة، لم تكن القطط منضبطة من الناحية التشريحية، لكنها في النهاية بدت لي لطيفة وجميلة، بعضها به شبه من قطة جارى "س"، تلك القطة التي افتقدت لعبة تسللها إلى شقتي من خلال شباك الصالة، بعد أن أخذ جاري "س" منذ عدة أيام أمه العجوز والقطة، ورحل إلى مكان جديد.

بعد الانتهاء من الصالة، انتقلت إلى حجرة النوم الخالية، ورسمت على حوائطها قططًا نائمة وأخرى واقفة، حجمها أكبر من قطط الصالة، الموضوع لم يستغرق منى سوى أيام قلائل، كنت أستغل فيها وقت الظهيرة الساكن والحار في العمل.

انتهى العمل، الآن تبدو شقتي كمقبرة، يرتكن تابوتي على الحائط، وحوله تصطف ممتلكاتي القليلة والثمينة، عدة صفوف من الكتب، ولوحات مغلفة، وحجر في المنتصف. دخلت الحمام للاغتسال، فكرت وأنا أضع رأسي تحت ماء الحنفية: ماذا لو أنني اختفيت في باطن الأرض لسبب ما،

كأن ينهمر على المكان جبل فيطمر تحته كل شيء، أعرف أنه لا توجد جبال من حولي، لكن لنتخيل، مجرد تخيل، أن جبلاً زهد من بقائه وحيدًا، لآلاف آلاف السنين في صحراء واسعة، لا يعرف من العالم سوى أشياء قليلة، منها تبادل الفصول والليل والنهار والشمس والقمر، التي تتعاقب عليه في تكرار لا ينتهي، وحيوانات غريبة تمكث في حضنه قليلا ثم سرعان ما تهجره إلى أماكن أخرى، جبل مقفر، بلا زرع أو ماء، أو حكايات وأساطير تخلد ذكراه، يمر عليه الرعاة فيرمقونه بنظرة حنق، ويواصلون حث أغنامهم على المسير، أما الشعراء فلم يلهمهم بقصيدة ولا حتى ببيت واحد من الشعر. هذا الجبل أتى بشكل ما إلى شارعي، ثم قرر أنه يرغب في تجربة شيء جديد ومختلف، يكسر به حالة الملل التي تسكنه منذ أزمان موغلة في البعد، شيء لم تألفه الجبال من قبل أو تفكر فيه، قرر أن يتداعى وينهار، فيصير تلاً أو هضبة أو تبة، أو حتى يتساوى بالأرض، فتنبت عليه بيوت وشوارع وحدائق. أيًّا كان ما سيصير إليه، فبالتأكيد سيتملكه شعور مختلف ومغاير، لما كان ينتابه وهو جبل. وبعد مئات أو آلاف السنين، سيعثر بعض المنقبين المتحمسين على موميائي الناشفة ومقبرتي، وقتها ستنتابهم الحيرة في جمع المعلومات عني، وفي تخمين وظيفتي ومكانتي الاجتماعية، الارتباك هو ما سيميز تقاريرهم وبحوثهم العلمية، لسبب بسيط، أنني لن أترك خلفي دليلاً واحدًا، يمكن أن يمدهم بمعلومات مفيدة يحتاجونها، لن أترك اسمًا أو معلومة، فقط مومياء تعاني من الوحدة، وزلطًا محفوظًا في الأدراج وعلبًا شفافة، وحجرًا بلون الشيكولاتة، وقططًا تسكن الحوائط.

بدا لي أن ما أفكر فيه هو نوع من الانتقام غير المبرر، تساءلت في سري: هل أنا شرير إلى هذه الدرجة؟ لكي أخطط لإرباك علماء سيأتون بعد آلاف السنين، ألا يفضل أن أترك لهم ولو دليلاً صغيرًا، مجرد طعم يقودهم - ولو بعد مشقة - إلى شيء مفيد، إنها خدمة أقدمها لهم، من يدرى؟ ربما تكون تلك سببًا في ترقيتهم في العمل، أو تساعدهم في الحصول على إحدى الدرجات العلمية، أو يحظون ببعض الشهرة، مجرد خدمة سيشكرونني عليها من صميم قلوبهم، وسيمتنون لي قائلين: "إنك رائع.. شكرًا أيها الجد".

شعرت بالاكتفاء فرفعت رأسي من تحت ماء الحنفية المتدفق، تأملت وجهي في المرأة، راقبت قطرات الماء، وهى تتساقط على كتفي وصدري، منحدرة إلى أسفل، نفضت رأسي فتناثرت القطرات حولى وعلى المرآة، راقبت انزلاقها السريع فوق السطح الأملس، صانعة خلفها طرقًا ملتوية فوق خدى وشفتى، ثم خرجت.

(١٦)

وقفت قدام مرآة الحمام، وفى صمت وبعينين مازالتا ثقيلتين من أثر النوم، أخذت أتأمل صورتي لفترة، لاحظت أن لحيتي نابتة، مررت أصابعي عليها، وفكرت في حلاقتها ثم تراجعت.

بالليل وصلني الإيميل التالي: "عزيزي.. الحلقات الأربع للقصة المصورة التي أرسلتها جيدة، لكن المشروع توقف لأسباب طارئة، نتمنى تلافيها في المستقبل، سنراسلك في حال ظهور أخبار جديدة، شكرًا لتعاونكم.. ودمتم". أغلقت الكمبيوتر ونمت. قبل الاستسلام لغواية سلطان النوم، فكرت في مهنة القاتل المأجور التي رغبت في امتهانها ذات يوم، بدت لى مهنة لا تليق بالمدن، المدينة ستفرغها من محتواها، وسيتم تأديتها بشكل نمطي لا إبداع فيه أو متعة، ما الجميل في اصطدام سيارة مسرعة، في شارع شبه خال من البشر بشخص ما، ثم تنطلق هاربة؟ وأين المتعة في انطلاق رصاصة من مصدر مجهول لتستقر في جسد مار؟ ستصير مهنة مشوهة، بلا قلب أو أخلاق، المدن دائمًا تفعل ذلك، تسرق شيئًا ما بداخلنا ولا تعيده مرة ثانية، يبدو أن للمهن أوطانًا ملائمة لها أكثر من غيرها، مهنة القاتل المأجور هي ابنة الطبيعة، ويجب أن تبقى في مكانها الأصلي الذي برعت فيه، الريف والصحراء هما الأنسب لها، هما اللذان

يمنحانها على الدوام وبكرم بالغ، أسطورتها الخاصة، وزهوها، ووجعها أيضًا.

الأمس - عندما اتصلت "سيرين"- كان أحد الأيام التي فضلت قضاءها في البيت، في الحقيقة لم أخرج منذ عدة أيام، فقط مشوار واحد صغير إلى ماكينة الصرف الآلي، ثم عدت بسرعة، دون إضاعة الوقت في التسكع في الشوارع والفرجة على الفتارين، أو المرور على المقهى، ومقابلة أي أحد من الأصدقاء، حينما ضغطت على زر الإجابة فى التليفون، أجابت "سيرين" بمرح كعادتها:

- صباح الفل؟

- صباح الفل.

- قلت في بالى أفكرك بالميعاد.

- طبعا فاكر.

- الساعة العاشرة.

- تمام.

صمتت قليلاً، ثم قالت بصوت هادئ:

- مالك؟

- لا شيء.

- هل أيقظتك من النوم؟

- بالعكس.. أنا مستيقظ من السادسة صباحًا.

- صوتك يبدو كالنائم.

- ممكن.

- مكتئب؟
- لا.
- غاضب؟
- لا.
- حساسية الأنف؟
- أبدًا.
- آسفة لأنني أيقظتك من النوم.
- يجد أنا صاحٍ.
- صوتك يبدو نائمًا.
- ربما.

لماذا اعتقدت "سيرين" بأنها أيقظتني من النوم؟

تقريبًا هي تعرف كل عاداتي، وأنني دائمًا أصحو مبكرًا، في تلك اللحظة كانت تمتلك يقينًا جازمًا بأن مكالمتها الهاتفية هي السبب، إن لم تكن قد تسببت في إيقاظي من النوم، فعلى الأقل لها علاقة بحياديتي في ردودي عليها، أو حسب تعبيرها الذي أخبرتني به سابقًا: "تبدو منطفئًا". أسفها هذا كررته من قبل أكثر من مرة، خاصة في المكالمات الهاتفية التي تتم في الصباح أو فترة الضحى، سرعان ما تعقب بالاعتذار عن كونها أيقظتني من النوم. ليس هي فقط، حتى أصدقائي يفعلونها أحيانًا، ويعتذرون في نهاية المكالمة.

عندما فكرت أكثر، اكتشفت أن صوتي كان يخرج متحشرجًا، وأن "سيرين" عندها حق في يقينها بأني استيقظت للتو. بعد انتهاء المكالمة

دخلت المطبخ، شربت كوبًا من ماء الحنفية الفاتر، وقررت صنع كوب نسكافيه باللبن، أطرد به النوم الساكن في حنجرتي، وأجدد به نشاطي، وبالمرة أقلد "سيرين" فيما تفعله، والتي تخيلتها وقد انتهت للتو من إعداد كوبها هي أيضًا، وبدأت في الانشغال بممارسة طقوسها الصباحية.

هذه ليست أول مرة أقلد فيها "سيرين"، فعلت ذلك من قبل أكثر من مرة، لو دققت في الموضوع أكثر، فإنني سأكتشف ـــ وبشكل ما ـــ أن العديد من ممارساتي اليومية في الحياة، هي في حقيقة الأمر، ممارسات أشخاص آخرين مروا في حياتي، مثل مسح حذائي بالشراب الذي ألبسه في قدمي قبل خروجي من البيت، ممن أخذت هذه الفعلة؟ لا أعرف الآن. أو محبتي لمشروب معين، وحرصي على إعداده وشربه في توقيت محدد، أدرك أن "سيرين" عرفتني على النسكافيه باللبن، فمن الذي دلني على طريق القهوة؟ ومن الذي أخذ بيدي وقادني إلى رحلة التسكع في الشوارع؟ وممن أخذت عادة جمع الزلط والأحجار من الطرق؟ كان يجب أن أدون مثل هذه الأشياء في مفكرة صغيرة، حتى لا أنسى بمرور الزمن، إنها تاريخي الشخصي، تكويني، هي ما أنا عليه الآن، كل ما أفعله وأمارسه من طقوس أو أفعال لم يأت عبثًا، كل هذه الأشياء هي جزء مميز من حيوات آخرين، امتلكوها ومارسوها بتلقائية، وبطريقة ما تسربت إلى داخلي، ثم بخجل وعلى مهل بدأت تعلن عن وجودها، لتصبح بعد فترة جزءًا أصيلاً من أفعالي وطقوسي. بالتأكيد أمتلك أشياء تخصني وحدى، تمنحني طابعًا مميزًا، أنا من اكتشفتها أو هي موجودة في جيناتي الوراثية، لكن هذا لا ينفى أن هناك أشياء أخرى اكتسبتها من رحلتي في الحياة.

هل يعني هذا أنني مثل لعبة البازل، مجرد أجزاء مقتطفة ومرتبة بشكل جيد، من حيوات أناس عرفتهم وعاشرتهم، أصدقائي وزملائي، جيراني، أناس مروا في الشارع فسرقوا عيني لبرهة، أو رواد قعدوا على المقهى فراقبتهم بدقة.

عندما أصل إلى هذه النقطة من التفكير، يبدو لي الأمر مرعبًا، هذا معناه أنني لست نقيًّا بشكل كامل، مخلوق غير صاف، كائن ترك الآخرون بصماتهم عليه ورحلوا، هل أمارس دورًا ما في هذه اللعبة اللانهائية، فأمنح بكرم غير متناه، أجزاء من حياتي إلى آخرين؟ ما الذي أخذته "سيرين" مني؟ القعود بلا حراك في الظلام، أم الصوم عن الكلام؟ الأمر مثير للفضول لدرجة ستجعلني - مستقبلاً - أحاول التركيز في الآخرين، في محاولة لرد الأشياء إلى أصولها، ولمعرفة مَن الأكثر تأثيرًا في المحيطين به. مراقبة حركة الأيدي، وكيفية الابتسامة، طريقة تزرير القمصان، وشرب القهوة، وضع الساق على الساق، مراقبة كل حركة وكل فعل، ترقيد الشخص على الطاولة، والبدء في تقشيره بهدوء وحرص، نزع كل الطبقات المكتسبة عبر السنين، طبقة وراء الأخرى، للوصول إلى الأصل الحقيقي له، حينها سيبدو نحيفًا ومرتجفًا، ينتفض في خوف، بشكل يثير الشفقة ويبعث على الرثاء.

أخذت أنفخ خديَّ بالهواء، راقبتهما لفترة في المرآة، وهما يبدوان كبالونين صغيرين، وعلى مهل، سمحت للهواء بالتسرب من بين شفتي، ثم عدت وملأتهما بالهواء مرة ثانية، أخذت أبدل بين انتفاخ الخد الأيمن والأيسر في حركات متبادلة، أعجبتني اللعبة، كررتها عدة مرات، ثم عدت وأفرغت

الخدين من الهواء مجددًا، بعدها حركت لساني على أسناني العلوية والسفلية وفى سقف الحلق، ثم جربت ابتسامة صغيرة على وجهي.

نبرات صوت "سيرين" المعتذرة أثناء المكالمة، وتأسفها عن الاتصال في وقت غير مناسب، جعلتني أشعر بالخجل، لأنني بالفعل لم أكن نائمًا، ولأن صوتي الذي بدا لها ناعسًا منحها إحساسًا بالذنب، وحتى أزيل هذا الالتباس أكملت بسرعة:

- لم أتكلم منذ الصباح.

كنت أعتقد أن هذه الحجة ستبرر لها سبب صوتي النائم، وحتى أؤكد لها هذا المعنى واصلت:

- أنت أول شخص أتكلم معه اليوم.

ثم قلت بيقين:

- والله.

أخرجت لساني من فمي، حركته في كل الاتجاهات، ثم تركته ثابتا لثوان، حاولت القبض على إحساس ملامسة الهواء للساني، الجفاف الذى بدأ في الانتشار بمقدمة اللسان، تاركًا شعورًا غير مريح، أجبرني على سرعة إدخاله في فمي.

قلت بصوت مسموع: "إحمم.. إحمم"، كررتها عدة مرات، ثم توقفت..

"ربما تتصل"، قلت ذلك في نفسي، واصلت: "مجرد اطمئنان صغير أنني في طريقي إلى ميعادنا اليوم"، فترة الصباح الباكر هي وقتها المفضل لإجراء المكالمات الهاتفية، في ذلك الوقت تبدو في قمة نشاطها، لا تكف لحظة واحدة عن الضحك والكلام، ومنح البهجة للجميع بلا مقابل، فكرت: "ربما يتصل شخص آخر غيرها".

رسمت ابتسامة على وجهي، بدت لي كبيرة بشكل محرج، وغير مناسبة على الإطلاق لاستخدامها مع أي شخص، صنعت ابتسامة أخرى أصغر، اعتقدت أنها معقولة وجذابة، ومن الممكن استخدامها كثيرًا أثناء حديثي مع الآخرين، بعدها جربت ابتسامة خفيفة، بالكاد تظهر على شفتي، ترافقها لمعة في العينين، تلك الابتسامة التي ضحكت صديقتي الأولى "س" عندما شافتها لأول مرة، ووصفتها بأنها: ابتسامة ماكرة، تدل على أن بداخلي شريرًا خفيًّا، ونوايا غير بريئة.

عودت نفسي خلال السنوات الماضية، على الاستيقاظ ما بين الساعة السادسة والسابعة صباحًا، الاستيقاظ من النوم لا يمثل لي مشكلة عصية، لكن الذي يبدو صعبًا هو السبب الذي أصحو عليه، منذ زمن بعيد لم أجرب الاستيقاظ دون وجود مؤثر خارجي، حتى إنني ما زلت أحلم بالذهاب في إجازة، تحديدًا إلى مكان بعيد، معزول عن العمران، واحة في الصحراء ستكون مكانًا مناسبًا، من أجل أن أستيقظ وحدي دون تليفون أو منبه، أصحو من تألم عظامي من كثرة النوم وليس من شيء آخر.

ما يحدث معي عادة أن يكون استيقاظي في الصباح نتيجة لمؤثر ما، كأن أصحو على خطوات تهبط السلم ببطء متعمد، تدق كالمسامير على رخام الدرجات أثناء نزولها، أو هدير موتور سيارة تستعد للانطلاق، أو صيحات وسباب تلاميذ مدرسة الصنايع القريبة. كل تلك المؤثرات تبدو لي مقبولة، لكن أحيانًا استيقظ بشكل مفاجئ وصادم، كأن أصحو على نقرات بائع أنابيب، قرر الخروج للعمل مع أول شعاع للشمس، تلك النقرات المتتابعة والحادة، والتي تضغط على الروح بقسوة، أبدو لحظتها متوترًا، أتقلب على السرير محاولاً العودة ثانية إلى النوم، أغفو لأجزاء من الثانية، لأنتبه على نقرات الأنبوبة المتواصلة.

وضعت يدى على حنجرتي، حركت أصابعي برفق، كنوع من التدليك اللطيف، صاعدًا حتى ذقني، وهابطًا إلى عظام الصدر، أبعدت يدى ونطقت: "واحد .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة.. إحمم.."، لو اتصلت "سيرين" الآن سيبدو لها صوتي طبيعيًّا، وبالتأكيد لن تسألني: إن كانت قد أيقظتني من النوم؟ أو اتصلت في وقت غير مناسب؟ وبالتالي لن تشعر بالذنب، وستنطلق في الكلام بصوت مرح ومتفائل، تتخلله ضحكات أذوب عند سماعها .. صوت سيبث بداخلي شعورًا قويًّا بأن اليوم جميل، ويستحق أن أستمتع بكل لحظة فيه، ومن الممكن أن أضع له خططًا لطيفة لقضاء الوقت بعد انتهاء ميعادنا.

في الأيام السابقة، التي لا أذهب فيها إلى أي مشوار، وأفضل القعود في البيت، لم أكن أقف أمام المرآة، كنت أظل هكذا لأوقات طويلة بدون

كلام مع أحد، أتسلى بالقراءة أو تأمل الحوائط وانتظار قدوم إخوتي لممارسة ألعابهم، لذا مع أول اتصال هاتفي، يبدو صوتي نائمًا للطرف الآخر.

أما في الأيام التي أخرج فيها، فيتكفل بعودة صوتي إلى وضعه الطبيعي، تحيات الصباح التي ألقيها على الجيران الذين أصادفهم في مدخل العمارة، وبائعة المناديل عند محطة المترو، وبائع الجرائد، وماسح الأحذية الذي أثرثر معه قليلاً في أي شيء، حتى أشعر بأن صوتي لن يعطى إحساسًا لأحد، بأني أحمل بقايا النوم معي.

لم أمارس لعبة المرآة من قبل، عندما لاحظت أسف "سيرين" المتكرر في الهاتف، وتحديدًا بعد مكالمة الأمس، قررت أن أكلم نفسي أمام مرآة الحمام لبعض الوقت، مجرد بروفة صغيرة، تساعد أحبالى الصوتية على ممارسة العمل بشكل طبيعي، بالتأكيد لن أكون سببًا في تأنيب ضميرها، لمجرد ظنها أنها السبب في إيقاظي من النوم، كنت حريصًا على ألا أدع هذا الشعور يقترب منها، تاركًا على قلبها لمحة من الحزن أو الأسى، ومسببًا الارتباك في طقوسها الصباحية.

حاولت التركيز في الصوت الخارج من حنجرتي، في محاولة للتعرف على حالته، هل مازال متأثرًا بالنوم أم أنه استعاد نبراته الطبيعية، فكرت أن الغناء يعد حلاً سريعًا لمثل هذه الظروف، فبدأت أدندن بصوت عال: "الحلوة دى قامت تعجن فى الفجرية.. والديك بيدن كوكو.. كوكو"،

كررتها أكثر من مرة، بدأت الغناء بصوت منخفض، ثم تدرج في الصعود حتى وصل إلى درجة الصياح.

ابتعدت خطوة للوراء بعيدًا عن المرآة، تمتمت: "حسنًا أيها السيد لا أعرف". كنت أشعر بالراحة، وبالرضا عن صورتي ولحيتي النابتة، وقد استقرت بداخلي طمأنينة، وحل السلام، وبأنني مستعد - وبشكل جيد - لما سيحدث بعد قليل في الساعة العاشرة.

القاهـــرة

٢٠١٠ / ٢٠١٢

منافذ بيع مكتبة الأسرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤كورنيش النيل – رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة
ت: ٢٥٧٧٥٠٠٠ ـ ٢٥٧٧٥٢٢٨
٢٥٧٧٥١٠٩ داخلى ١٩٤

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ش ٢٦ يوليو ـ القاهرة
ت: ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو ـ القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف
٣٦ش شريف ـ القاهرة
ت: ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى ـ التوفيقية ـ القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر ـ الحسين ـ القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان ـ السيدة زينب
أمام دار الهلال ـ القاهرة

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو ـ حلوان خلف مبنى-الجهاز

مكتبة الجيزة
١ ش مراد ـ ميدان الجيزة ـ الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة
خلف كلية الإعلام ـ بالحرم الجامعى
بالجامعة ـ الجيزة

مكتبة رادوبيس
ش الهرم ـ محطة المساحة ـ الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة ـ الهرم
مبنى أكاديمية الفنون ـ الجيزة

مكتبة ساقية عبدالمنعم الصاوى
الزمالك ـ نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبوالفدا ـ القاهرة

مكتبة الإسكندرية
٩٤ ش سعد زغلول ـ الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية
التمليك ـ المرحلة الخامسة ـ عمارة ٦
مدخل (أ) – الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة المحلة الكبرى
ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقًا ـ المحلة

مكتبة جامعة قناة السويس
مبنى الملحق الإدارى ـ بكلية الزراعة
ـ الجامعة الجديدة ـ الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد
بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ ـ بورسعيد

مكتبة أسوان
السوق السياحى ـ أسوان
ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط
٦٠ش الجمهورية ـ أسيوط
ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا
١٦ ش بن خصيب ـ المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
مبنى كلية الآداب ـ جامعة المنيا ـ المنيا

مكتبة طنطا
ميدان الساعة ـ عمارة سينما أمير
ـ طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة دمنهور
ش عبدالسلام الشاذلى ـ دمنهور
مكتب بريد المجمع الحكومى ـ توزيع
دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة
٥ ش السكة الجديدة ـ المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية
مكتبة طلعت سلامة للصحافة
والإعلام
ميدان التحرير ـ الزقازيق
ت : ٠٥٥/٢٣٦٢٧١٠
ت: ٠١٠٠٦٥٣٣٧٣٣٢

طبعة خاصة تصدرها

دار الكتب خان للنشر والتوزيع©

بمناسبة مشروع مكتبة الأسرة ٢٠١٥

١٣شارع ٢٥٤- دجلة - المعادي - القاهرة

تليفون : ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩- ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+

البريد الالكتروني : info@kotobkhan.com

الموقع الالكتروني : www.kotobkhan.com

أدب

سلسلة تهتم بنشر النصوص المتميزة من الإبداع، معاصرة كانت أم حداثية، متمثلة في النماذج المضيئة من الشعر والسرد والنقد الأدبي بالإضافة إلى تاريخ الآداب، من أجل إثراء خبرة القارئ وتنمية وجدانه الأدبيّ ووعيه الجمالي، والسعي إلى نشر القيم الفنية التي تحقق للمتلقي الفائدة المرجوّة من قراءة هذه النصوص الراقية؛ حيث يمنح الاشتباك مع فضاء النص متعة الفنّ الجميل، ويدرب على كيفية تذوقه، كما تمنح القارئ مساحات لا نهائية للدخول إلى هذه العوالم السحرية، التي يعكف الأدباء على بنائها بعصارة وجدانهم وحبر قلوبهم.

ISBN# 9789779103952

6 221149 037359

جنيهان